

رمضان جانا



محمد المزغوم

مقدمة

إن الصوم مدرسة فريدة تعالج قضية التقوى معالجة نفسية ميدانية، قال عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٣].

والصوم مدرسة روحية عظيمة القدر، حيث يتجلى خلق الصبر في سلوك الصائم، فلا يجزع ولا يقلق ولا يقتط من رحمة الله.

يقول ابن قيم الجوزية - رحمه الله - : (المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامهاش عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب ما فيه سعادتها ونعيمها وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية، ويكسر الظمأ والجوع من حذتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب...).

والغزالي - رحمه الله - يقول: الصيام زكاة للنفس ورياضة للجسم وداع للبر فهو للإنسان وقاية، وللجماعة صيانة، في جوع الجسم صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة.

وغير خاف أن الصوم يعطي لجهاز الهضم راحة تامة، ويتيح للجسم الفرصة للتخلص من السموم والفضلات المتراكمة.

ورد عن بعض السلف قوله رحمه الله: لقد خصّ الله - عز وجل - شهر الصيام شهر رمضان بخصائص عديدة منها: أنه سبحانه وتعالى جعله شهراً مباركاً، وجعله شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وجعل فيه ليلة خير من ألف شهر، وجعل صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعاً، وهو شهر المواساة، وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار.

فضائل رمضان

لئن كان لكل خير مواسم، ولبعضها مناسبات أفرح فإن شهر رمضان هو موسم جميع المسلمين الذي تتنافس فيه معطيات الخير في نفوسهم وتبرز معاني فطرتهم الطيبة متحدية كل نوازع الشر والعبث، هذا بالإضافة إلى أن هذا الشهر تتضاعف فيه أعمال العبد عند خالقه وتحتسب النوافل بأجر الفرائض التي يضاعف الله أجرها عن غيرها في باقي الأيام.

ذلك أن شهر رمضان هو شهر الله الذي اختصه لنفسه تعالى، فقال جلّ وعلا في الحديث القدسي: (الصوم لي وأنا أجزي به).

حيث يتفرغ المؤمنون فيه لصيامه نهاراً وقيامه ليلاً. يجوعون ويظمأون بالحمد والشكر ثم هم يسهرون ويصلون ويتضرعون بالاستغفار ورجاء العفو والفضل من ربهم، إن فرحتهم بهذا الشهر لا تكاد تعادلها فرحة، وهم يقبلون على الله آناء الليل وأطراف النهار طائعين مستبشرين (يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا).

ولعظمة هذا الشهر المبارك نتذكر بعض ما جاء في حقه: فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأنه سمعه يقول في جمع من الصحابة - رضوان الله عليهم - ((لو يعلم العباد ما في رمضان لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان)).

ولقد طلب منه بعض الصحابة أن يحدثهم عن هذا الشهر العظيم، فقال عليه الصلاة والسلام ((إن الجنة لتُزَيَّن لرمضان من رأس الحور إلى الحور، فإذا كان أول رمضان هبت ريح من تحت العرش فصفقت ورق أشجار الجنة، فتنظر الحور إلى ذلك فيقلن: يا ربنا اجعل لنا من عبادك في هذا الشهر أزواجاً تفرّ أعيننا بهم وتفرّ أعينهم بنا... ثم قال: ((فما عبد يصوم يوماً في رمضان إلا زوّج زوجة من الحور العين في خيمة من درة)).

وقد كان عليه الصلاة والسلام يُبشِّرُ أصحابه في شهر رمضان، ويقول: ((قد جاءكم الشهر المبارك الذي فيه الليلة التي هي خير من ألف شهر، والله في كل ليلة من ليالي شهر رمضان ستمائة ألف عتيق من النار وله في آخر ليلة من لياليه مثل ما اعتق في جميع الشهر)).

قال بعض الزهاد:

إِنَّ شَهْرَ الصِّيَامِ مِضْمَارٌ نُسَكٍ = وسباقٍ إلى رضا المعبود

حلبة خيلها الصيام مع الند = سكِ وإدخالها جنان الخلود

وقال آخر:

شَهْرُ الصِّيَامِ مِشَاكِلُ الْحَمَامِ = فيه طهورٌ جوامع الآثامِ

فاطهر به واحذر عثارك إنما = شرُّ المصارعِ مصرعِ الحمامِ

وقال أبو جعفر الرامي في شهر رمضان:

فيا لك شهراً شهّر الله قدره = لقد شهّرت فيه سيوف الهدى شهراً

وقال أحدهم:

ألا إن شهر الصوم عنكم قد انقضى = فهل مرجع منكم لوشك له انصرافه

وهل فيكم مستوحشٌ لفراقه = وما فاتته من صومه وقيامه

فلا تغفلوا يا قوم إخراج حقّه = وأدوا زكاة الفطر عند تمامه

وما شرعت إلا لتكفير لغوه = ولم تُقض إلا طهّرة لصيامه

فقد فاز من زكى وصلى لربه = وحاز بشهر الصوم تكفير عامه

وقال آخر:

طوبى لعبد صام لله عن = مطعمومه شهرًا ومشروبه
وصان عن قول الخنا صومه = ولم يشبهه بأكاذيبه
والتمس الأجر على صومه = من ربه في ترك محبوبه
فالصوم لله كما صح = عن نبيّه والله يجزي به
وقال آخر:

شهر الصيام سيّد الشهور = كما أتى في الأثر المشهور
ولم يزل في سالف الدهور = محترمًا ذا بهجة ونور
فيه كما في الخبر المذكور = نُزّل بالتوراة يوم الطور
والذكر والإنجيل والزبور = فاستكثروا فيه من القصور
في جنة الخلد بلا قصور = واجتنبوا اللغو وقول الزور
وانتبهوا للعرض والنشور = قبل حلول ظلمة القبور

ولكونه أيضًا هو الذي كانت تنزل فيه الكتب السماوية لهداية الناس؛ كما قال
عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - بأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قال: ((أنزلت صحف إبراهيم - عليه السلام - في أول ليلة من شهر رمضان،
وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من
رمضان، وأنزل الزبور لثمانية عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع
وعشرين خلت من رمضان)).

وردت في تسمية شهر رمضان عدة أقوال، وتكاد تجمع على أن إطلاق اسم
رمضان نتج من مجيئه في أيام الحرّ الشديد، ولكونه يرمض الذنوب؛ أي:
يحرقها.

قال ابن دريد:

إن الناس قديماً عندما نقلوا أسماء الشهور، صادف شهر الصوم أيام رمض
وحرارة شديدة، ولذا سمّي شهر رمضان.

وقال أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء في كتابه: (الأيام والليالي والشهور):
وإنما سمّي رمضان لرموض الحرّ وشدة وقع الحرّ فيه.

يقول عبدالقدوس الأنصاري في كتابه: (الصيام وتفاسير الأحكام): شهر
رمضان هو الشهر الوحيد الذي ذكر اسمه صريحاً في القرآن المجيد؛ (شَهْرُ
رَمَضَانَ...) الآية.

وقد كان المسلمون يقولون عند مقدم رمضان استقبالاً له:

اللهم قد أظننا شهر رمضان وحضر، فسلمه لنا، وسلمنا له، وارزقنا صيامه
وقيامه وارزقنا فيه الجد والاجتهاد والقوة والنشاط وأعدنا فيه من الفتن.

وقال يعلى بن الفضل:

كانوا يدعون الله - تعالى - ستة أشهر أن يبلغهم رمضان، ثم يدعونه ستة
أشهر أن يتقبله منهم.

قال أحد الشعراء:

أتى رمضان مزرعة العباد = لتطهير القلوب من الفساد

فأد حقوقه قولاً وفعلاً = وزادك فاتخذ للمعاد

فمن زرع الحبوب وما سقاها = تأوه نادماً يوم الحصاد

قال بعض السلف الصالح:

خصّ الله - سبحانه وتعالى - شهر رمضان بخصائص كثيرة؛ منها: أنه - سبحانه وتعالى - جعله شهراً مباركاً، وجعل فيه ليلة خيراً من ألف شهر، وجعل صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعاً، وجعل من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير، كأنما أدى فريضة فيما سواه، وجعل شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة وشهرّ يزداد فيه رزق المؤمن، وشهرّ أوله رحمة وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار.

إن لشهر رمضان المبارك في الإسلام أسماء كثيرة منها:

شهر القرآن، وشهر الغفران، وشهر الرحمة، وشهر العتق من النار، وشهر الله، وشهر الآلاء، وشهر النجاة، وشهر الصبر، وشهر المواساة، وشهر الخير، وشهر الكرم، وشهر البركات والخيرات، وشهر إجابة الدعوات، وشهر الإحسان، وشهر إقالة العثرات، وشهر العودة إلى الله.

جاء في كتاب (بستان الواعظين)؛ لابن الجاء، وفي كتاب (بستان الواعظين)؛ لابن الجوزي:

مثل الشهور الاثني عشر كمثل أولاد يعقوب، وكما أن يوسف عليه السلام أحب أولاد يعقوب إليه، كذلك شهر رمضان أحب الشهور إلى الله تعالى.

كان أحد الحدادين يعمل في ظهيرة يوم حار من أيام شهر رمضان وكان جبينه يتصبب عرقاً، فقيل له: كيف تتمكن من الصوم والحرّ شديد والعمل مضني؟ فأجاب: مَنْ يدرك قدر من يسأله يهون عليه ما يبذله!.

قال المهلب في (نيل الأوطار): الحكمة من تعجيل الفطر أنه يزيد في النهار من الليل؛ لأنه أرفق بالصائم، وأقوى على العبادة؟

ولقد خصصت العشر الأواخر من الشهر الفضيل بالعتق من النار وبليلة القدر، يقول أحدهم:

أيا معشرَ الصوامِ وافتكُمُ البُشرى = وقد نشرَ الباري بمدحكُم ذكرا
خُصصتم بشهر فيه عتقٌ ورحمة = وقد أجزَلَ الرحمنُ للصائمِ الأجرَا
ولله في العشرِ الأواخر ليلة = لقد عَظمتُ أجراً كما مُلئتُ خيراً
فطوبى لقوم أدركوها وشاهدوا = تنزّلُ أملاكٍ بها أية كبرى
وفازوا بغفرانِ الإله فأصبحوا = يُشم عليهم من شذا عَرَفها عطرَا

نزل الحجاج في يوم حار في غير رمضان على بعض المياه وجاء وقت طعام الغداء فقال لحاجبه: انظر مَنْ يأكل معي واجتهد ألا يكون من أهل الدنيا. فرأى الحاجب أعرابياً نانماً عليه شملة من شعر فضربه برجله وقال: أجب الأمير. فجاء الأعرابي إلى الحجاج فدعاه إلى الأكل معه، فقال الأعرابي: دعاني مَنْ هو خير من الأمير فأجبتَه.

فقال الحجاج: مَنْ هو؟ قال: الله سبحانه وتعالى دعاني إلى الصوم فصمت. قال: أفي هذا اليوم الحار؟ قال: نار جهنم أشد حرًا. قال: أفطر وصم غدًا. قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد. قال: ليس لي ذلك. قال: كيف أدع عاجلاً لأجل لا تقدر عليه. قال: إنه طعام طيب. قال: إنك لم تطيبه ولا الخباز طيبه ولكن العافية طيبته.

قال أحد الشعراء:

جاءَ الصيامُ ومنَ صاداته بيدي = سبع فقد أكسبني بالقبول ثقة
صوفيتي وصفائي في صلاحيتي = والصبرُ والصونُ ثم الصدقُ والصدقة
جاء رجل إلى فقيه وقال له أفطرت يوماً في رمضان. فماذا أفعل؟ فقال الفقيه:
اقض يوماً مكانه. فقال: قضيت وأتيت أهلي وقد عملوا ثريداً وهم يتقنونه
فسبقنتني يدي إليه فأكلت منه. فقال: اقض يوماً آخر مكانه. فقال: قضيت
وأتيت أهلي وقد عملوا هريسة وهم يتقنون صنعها فسبقنتني يدي إليها. فقال
الفقيه: أرى ألا تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك!!!.

اقتصاديات رمضان

الصوم من أقوى العبادات على تهذيب النفوس والسمو بالأرواح، إذ فيه إعداد للنفوس وتهينة لها على تقوى الله ومراقبته.

وفي الصوم تربية على قوة الإرادة وكبح جماح الشهوات وأنانية النفوس ليقوى صاحبها على ترك ما يضره من مألوفاته أكلاً وشرباً أو متاعاً. والصوم ينمي في النفوس رعاية الأمانة والإخلاص في العمل والأيام فيه غير وجه الله دون مداهنة أو مجاملة.

والصوم يمثل ضرباً من ضروب الصبر الذي هو الثبات في القيام بالواجب في كل شأن من شؤون الحياة.

ثم، إن للصوم أسراراً يحسن العلم بها وتبين هذه الأسرار من خلال مراتب الصوم الثلاث وهي صوم العموم وصوم الخصوص وصوم خصوص الخصوص. فصوم العموم هو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة. وصوم الخصوص يعني كف النظر واللسان واليد والرجل والسمع والبصر وسائر الجوارح عن الآثام. وأما صوم خصوص الخصوص فهو: صوم القلب عن الهمم الدنيئة.

الصوم تربية لروح المسلم وأخلاقه حتى يشعر الغني بحاجة الفقراء والجوعى فيزداد إيمانه بالله ويقينه بضرورة أداء حق الفقراء في أمواله، بل ويزيد على ذلك الحق عندما يشعر بألم الجوع والعطش.

ومن الأسف أن اعتاد بعض الناس على بعض العادات السيئة الدخيلة على شهر رمضان والتي تتمثل في طريقة الإنفاق الاستهلاكي وهي ليست من الإسلام. فعندما يأتي شهر رمضان نرى أن أغلبية من المسلمين يرصدون ميزانية في الأشهر العادية، وتبدأ بمضاعفة استهلاكها. ويكون النهار صوماً وكسلاً، والليل طعاماً واستهلاكاً غير عادي.

إنّ الطعام الزائد في الليل وبإفراط يؤدي إلى فقدان الكثير من تلك الفوائد بل قد ينعكس ذلك بشكل سلبي على صحة الإنسان، فإذا أكل كثيرًا في الليل يصبح كسلانًا بسبب تخمّر الطعام في جهازه الهضمي.

والنصيحة التي يمكن أن نوجهها إلى المسلمين هي عدم التفريط وعدم الإفراط في تناول الطعام في ليالي رمضان والتزام الوسطية والإعتدال ذلك أن أحد أسباب الكارثة التي حلت بنا اليوم هي البطر والإفراط في الاستهلاك والتبذير والبعد عن الدين القيم. قال تعالى: (وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [النحل: ١١٢] وكلنا يعلم قصة قارون كما وردت في القرآن الكريم (القصص: ٧٦-٨٣)، وفرعون وغيرهم الذين جحدوا نعم الله.

فالإسراف والتبذير في الاستهلاك يُعدّ سوء استخدام للموارد الاقتصادية والسلع التي أنعم الله بها على العباد لينتفعوا بها وهو عمل يذمّه الإسلام ذمًا كبيرًا، حيث وصف الله المسرفين والمبذرين بأنهم إخوان الشياطين، لما لهذا العمل من آثار سيئة لا تقتصر على صاحبها الذي مارس الإسراف بل تمتد لتشمل المجتمع والعالم.

إنّ للصوم أبعادًا اقتصادية عظيمة منها: ما يدركها العقل البشري كأثره على صحة الإنسان مثلاً، الثروة البشرية، ومنها ما لا يستطيع العقل البشري إدراكه. فطوبى لمن اقتدى في صيامه وقيامه بمحمد - صلى الله عليه وسلم -.

إنّ من واجب المسلم أن يعمل على توفير ما تقوم به الحياة من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن... إلخ من الضروريات، لصيانة دينه ونفسه ونسله، ولحفظ عقله وماله. كما يفترض في المسلم أن يتجنب النزعة الاستهلاكية قدر الإمكان. وإن كان هذا يختلف من شخص لآخر، بحسب يساره المادي وبقدر زهده في الدنيا ومباهجها، إلا أن هناك حدودًا لذلك على كل حال ينبغي مراعاتها.

إنّ الإنسان أهم بكثير من أي نموذج أو نظرية أو تفسير، هذا ما اكتشفه علماء الإقتصاد أخيراً، فالإنسان هو الذي يقرّر مستوى رفاهه ودرجة ثرائه، وكل الأمر متوقف على قراره وسلوكه، فبإمكانه إن أراد أن يكون معتدل الاستهلاك فيصبح حجم الوفرة لديه بما يمكنه أن يصبح ثرياً .

ولذلك عادت مفردات التدبير والتوفير وحسن التصرف في المال، تشق طريقها إلى الدراسات الاقتصادية الحديثة.

ووجدنا من الاقتصاديين مَنْ يقول: لقد تحدّثنا كثيراً عن قوانين الاقتصاد، ورسنا المزيد من المنحنيات والمعادلات، ولكننا نسينا المتغير الأكبر الذي يقرّر صلاحية أو عدم صلاحية كل ما تحدثنا عنه وتوقعناه وهو الإنسان.

إنّ رمضان هو محاولة لصياغة نمط استهلاكي رشيد وعملية تدريب مكثّف تستغرق شهراً واحداً تفهم الإنسان أن بإمكانه أن يعيش بإلغاء الاستهلاك، استهلاك بعض المفردات في حياته اليومية لساعات طويلة كل يوم. إنه محاولة تربوية لكسر النهم الاستهلاكي الذي أجمع علماء النفس المعاصرين أنه حالة مرضية، وأن مجال علاجه في علم النفس وليس في علم الاقتصاد. وإن كان يصيب بتأثيراته أوضاع الاقتصاد وأحواله.

إنّ رمضان مناسبة للمسلمين ليتذكروا بأن الجسد والعقل يعملان بكفاءة تامة خلال ساعات الصيام، وأن بالإمكان تحمّل الجوع والعطش لفترات طويلة والبقاء في حالة ذهنية أكثر صفاء وحالة جسدية أكثر انتعاشاً وخفة.

وهذا الاكتشاف الذي يتكرر مع كل قدوم للشهر المبارك هو الخلاص من الوقوع في الديانة الاستهلاكية التي أصيبت بها بعض المجتمعات، والتي أصبح فيها السوبر ماركت هي أماكن عبادتها الجديدة، على حد تعبير الدكتور جمال حمدان في مؤلفه (مصر.. دراسة في عبقرية المكان).

وفي الختام نود أن نؤكد حقيقة مسلمة أنه لا بد من بناء الإنسان المستهلك
باعتدال.

بدع رمضان

يعتبر شهر رمضان من أعظم مواسم المسلمين فهو شهر الصوم الذي هو الركن الرابع من أركان الإسلام وقد فضله الله تعالى بأن أنزل فيه كتابه الكريم وجعل فيه ليلة خيراً من ألف شهر. وقد ورد في فضله وفضل العبادات فيه آثار كثيرة.

وشهر رمضان شهر مبارك وفضائله كثيرة، وقد شرع فيه من الأعمال والقرب الشيء الكثير ولكن المبتدعة أحدثوا بدعاً في هذا الشهر الفضيل.

ومن ذلك ما ابتدع في قيام رمضان في الجماعة من قراءة سورة الأنعام جميعها في ركعة واحدة من التراويح ليلة السابع أو قبلها.

يقول عبدالله التويجري في رسالته العلمية (البدع الحولية): وكون قراءة سورة الأنعام كلها في ركعة واحدة في صلاة التراويح بدعة، ليس من جهة قرانتها كلها، بل من وجوه آخر، منها:

١) تخصيص ذلك بسورة الأنعام دون غيرها من السور يوهم أن هذا السنة فيها دون غيرها، والأمر بخلاف ذلك.

٢) تخصيص ذلك بصلاة التراويح دون غيرها من الصلاة وبالركعة الأخيرة منها دون ما قبلها من الركعات.

٣) ما فيه من اطالة على المأمومين.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك فأجاب بأن ذلك بدعة.

ومن ذلك بدعة صلاة التراويح بعد المغرب، سنل ابن تيمية - رحمه الله - عن ذلك فأجاب: السنة في التراويح أن تصلى بعد العشاء الآخرة، كما اتفق على ذلك السلف والأئمة، وقيام الليل في رمضان وغيره إنما يكون بعد العشاء... فمن صلاها قبل العشاء فقد سلك سبيل المبتدعة المخالفين للسنة.

ومن المبتدعات، بدعة صلاة القدر، وصفتها أنهم يصلون بعد التراويح ركعتين في الجماعة ثم في آخر الليل يصلون تمام مائة ركعة، وتكون هذه الصلاة في الليلة التي يظنون ظناً جازماً أنها ليلة القدر.

وقد سنل ابن تيمية - رحمه الله - عن هذه البدعة فقال: المصيب الممتنع من فعلها والذي تركها، فإن هذه الصلاة لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين، بل هي بدعة مكروهة باتفاق الأئمة ولا فعل هذه الصلاة لا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أحد من الصحابة ولا التابعين ولا يستحبها أحد من أئمة المسلمين.

وابتدع بعضهم جمع آيات السجدة، ويقرأ بها في ليلة ختم القرآن وصلاة التراويح ويُسبِّح بالمأمومين في جميعها.

ومن البدع التي أحدثت في رمضان بدعة سرد جميع ما في القرآن من آيات الدعاء، وذلك في آخر ركعة من التراويح، بعد قراءة سورة الناس فيطول الركعة الثانية على الأولى.

ومما أحدث في هذا الشهر الفضيل: الذكر بعد كل تسليمين من صلاة التراويح ورفع المصلين أصواتهم بذلك، وفعل ذلك بصوت واحد، فذلك كله من البدع.

ومما أحدث في هذا الشهر العظيم، رفع الصوت بالدعاء بعد ختم القرآن ويكون هذا الدعاء جماعياً وبصوت عال، ومما أحدث في ليلة ختم القرآن:

أ - اجتماع المؤذنين تلك الليلة فيكبرون جماعة في حال كونهم في الصلاة.

ب - ضرب الطبل والأبواق والدف أمام القارئ أثناء سيره إلى بيته.

ج - عمل بعض الأطعمة والحلوى لهذه المناسبة.. هذه بعض المنكرات والمبتدعات التي أحدثت في ليلة الختم.

ومن البدع المحدثه في شهر رمضان المبارك، أنه إذا بقي من رمضان خمس ليال أو ثلاث يجتمع المؤذنون والمتطوعون من أصحابهم، فإذا فرغ الإمام من سلام وتر رمضان، تركوا التسبيح المأثور وأخذوا يتناوبون مقاطع منظومة في التأسف على انسلاخ رمضان.

إن انشغال الناس بهذه البدع، سبب في ابتعاد الناس عما شرعه الله ورسوله عليه الصلاة والسلام من إحياء ليالي رمضان بالصلاة والذكر.

أحداث رمضان

لقد حفل شهر رمضان بأحداث مهمة في التاريخ كلها تدل على أن رمضان كان على مدى التاريخ شهر عمل وانتصارات وجهاد.

ذكر القزويني في كتاب (عجائب المخلوقات) نقلاً عن الإمام جعفر الصادق - رحمه الله - أن خامس رمضان الماضي هو أول رمضان الآتي. يقول: إنهم امتحنوا ذلك خمسين سنة فوجدوه صحيحاً!!!.

ويقال أن أول رمضان صامه المسلمون كان يوم الأحد ٢٦ فبراير عام ٦٢٣م، أما رمضان الثاني فقد وافق أول يوم منه الجمعة ١٥ فبراير سنة ٦٢٤م، بينما رمضان الثالث وافق أول يوم منه يوم الثلاثاء ٤ فبراير عام ٦٢٥م!!!.

إن أهم الأحداث الرمضانية قاطبة، نزول القرآن الكريم على النبي محمد- صلى الله عليه وسلم - وهو في غار حراء.

وفيما يلي نستعرض بعضاً من الأحداث الرمضانية:

(١) في رمضان من السنة الثانية للهجرة وقعت غزوة بدر الكبرى وهي من أوائل وأهم الانتصارات الإسلامية التي كان لها أكبر الأثر في تثبيت دعائم الإسلام.

(٢) في رمضان من السنة الثامنة للهجرة كان الفتح الكبير، فتح مكة.

(٣) في رمضان من السنة التاسعة للهجرة حضر إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم - وفد ثقيف لمبايعته.

(٤) في رمضان سنة ١٥ هـ كانت موقعة القادسية التي انتصر فيها المسلمون على أكبر الإمبراطوريات، وتم القضاء على المجوسية بفارس.

(٥) في رمضان سنة ٥٣ هـ فتح المسلمون جزيرة رومس.

- ٦) في رمضان سنة ٦٤ هـ بايع الناس بمكة المكرمة عبدالله بن الزبير -
رضي الله عنهما - بالخلافة.
- ٧) في رمضان سنة ٩١ هـ نزل المسلمون إلى الشاطئ الجنوبي لبلاد الأندلس
وغزو بعض الثغور.
- ٨) في رمضان سنة ٩٢ هـ فتح المسلمون الأندلس بقيادة طارق بن زياد -
رحمه الله -.
- ٩) في رمضان سنة ١٢٩ هـ ظهرت الدعوة لبني العباس في خراسان.
- ١٠) في رمضان سنة ١٣٢ هـ سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية.
- ١١) في رمضان سنة ٢١٧ هـ أسس العرب مدينة كانديا بجزيرة كريت.
- ١٢) في رمضان سنة ٢٥٤ هـ انفصلت مصر عن الدولة العباسية بقيادة أحمد
بن طولون.
- ١٣) في رمضان سنة ٣٦١ هـ تمّ بناء الجامع الأزهر بالقاهرة.
- ١٤) في رمضان سنة ٣٦٢ هـ استولى المعز لدين الله العبيدي على القاهرة.
- ١٥) في رمضان سنة ٥٠٠ هـ حاصر السلطان محمد قلعة الباطنية في
اصفهان.
- ١٦) في رمضان سنة ٥٨٤ هـ بدأ صلاح الدين الأيوبي هجومه على الصليبيين
من سوريا قاصداً مدينة صفد بفلسطين وقد مكّنه الله تعالى من الاستيلاء
عليها.
- ١٧) في رمضان سنة ٥٨٨ هـ رحل السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى بيت
المقدس وقام بتحسينها وتشبيد الأسوار حولها.
- ١٨) في رمضان سنة ٦٥٨ هـ هزم الجيش الإسلامي المصري حشود التتار
وأوقع بجحافلهم هزيمة منكرة وذلك بقيادة الظاهر بيبرس.

١٩) في رمضان ١٢٤١ هـ استولى إبراهيم باشا على مدينة ميسولونجي من بلاد اليونان.

٢٠) في رمضان سنة ١٣٩٣ هـ انتصر المسلمون على اسرائيل في أول مواجهة حقيقية بينهما.

قالوا عن رمضان

كان شهر رمضان المبارك، ولا يزال، مبعثاً لكوامن الشعور النبيل والأفكار النيرة والأوصاف الحسنة والمواعظ الطيبة من قبل العلماء والأدباء والمفكرين والشعراء.

وقد جادت قرائحهم بقطوف دانية من الأقوال والحكم والمواعظ التي تعكس فضل هذا الشهر الفضيل ومنزلته في النفوس والقلوب، نقتطف منها أزاهيرها.

يقول الحسن بن علي - رضي الله عنهما -: إن الله جعل رمضان مضمراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته فسبق قوم ففازوا وتخلف آخرون فخابوا.

ويقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ودع أذى الجار وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

وورد عن الحسن البصري - رحمه الله - قوله: إن الله جعل الصوم مضمراً لعباده ليستبقوا إلى طاعته، فسبق قوم ففازوا ولعمري لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ومسيئ بإساءته من تجديد ثوب أو ترجيل شعر.

أما الشافعي - رحمه الله - فيقول: أحب للصائم الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداء برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم ولتشاغل كثير منهم فيه بالعبادة عن مكاسبهم.

وهذا أبو حامد الغزالي - رحمه الله - يقول: الصيام زكاة للنفس ورياضة للجسم وداع للبر فهو للإنسان وقاية وللجماعة صيانة. في جوع الجسم صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة لأن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر الشجار في الدماغ فيتبدل الذهن والصبى إذا ما أكثر أكله بطل حفظه

وفسد ذهنه أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك وقلّة الشبع وطهّروها بالجوع تصفّ
وترق.

وابن قيم الجوزية - رحمه الله - يقول: المقصود من الصيام حبس النفس عن
الشهوات وفطامها عن المألوفات وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب ما فيه
غاية سعادتها ونعيمها وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية ويكسر الجوع
والظمأ من حدتها وسورتها ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين
وتضيق مجاري الشياطين من العباد بتضييق مجاري الطعام والشراب وتحبس
قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ويسكن
كل عضو فيها وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه فهو لجام المتقين وجنة
المتحابين ورياضة الأبرار المقربين.

ويضيف أبو الفرج ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - مؤكداً تلك الفوائد
والأسرار، قائلاً: كما كان الصيام في نفسه مضاعفاً أجره إلى سائر الأعمال
كان صيام شهر رمضان مضاعفاً على سائر الصيام بشرف زمانه وكونه هو
الصوم الذي فرضه على عباده وجعل صيامه أحد أركان الإسلام التي بني
الإسلام عليها.

قيل للأحنف بن قيس: إنك شيخ كبير وإن الصوم يضعفك. فقال: إني أعدّه
لسفر طويل، والصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه.

يقول مصطفى صادق الرافعي: من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم،
وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يبالغ أشد المبالغة ويدقق
كل التدقيق في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر
الطاقة. فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس ولا طريقة غيرها إلا
النكبات والكوارث.

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يحذف
من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة ليحل في محله تاريخ
النفس.

وأنا مستيقن – والكلام للرافعي – أن هناك نسبة رياضية هي الحكم في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم وأعمال الجسم للنفس.

وكأنه الشهر الصحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة لإحداث الترميم العصبي في الجسم.

وقفات مع الصيام

الوقفة الأولى: فضل الصيام

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: ((كل عمل ابن آدم له الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف، قال الله - عزوجل - إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، للصائم فرحتان، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك...)).

الوقفة الثانية: الصبر والصيام

الصيام من الصبر، وقد قال تعالى: (إِنَّمَا يُؤَفِّقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠] وورد عن النبي عليه السلام قوله: ((إنه سمي شهر رمضان شهر الصبر)) وفي حديث آخر عنه- صلى الله عليه وسلم - قال: ((الصوم نصف الصبر)) خرجه الترمذي، والصبر ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، وتجتمع الثلاثة في الصوم، فإن فيه صبراً على طاعة الله وصبراً عما حرم الله على الصائم من الشهوات، وصبراً على ما يحصل للصائم فيه من ألم الجوع والعطش وضعف النفس والبدن.

الوقفة الثالثة: خصوصية الصيام

لقد خصّ الله سبحانه الصيام بإضافته إلى نفسه دون سائر الأعمال، لأن الصيام فيه ترك لحظوظ النفس وشهواتها الأصلية التي جبلت على الميل إليها لله - عزوجل - ولا يوجد ذلك في عبادة أخرى غير الصيام، ثم إن الصيام سرّ بين العبد وربّه لا يطلع عليه غيره سبحانه.

الوقفة الرابعة: حقيقة الصيام

قال بعض السلف أهون الصيام ترك الشراب والطعام، قال جابر رضي الله عنه: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولساتك عن الكذب والمحارم ودع أذى الجار وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

إذا لم يكن في السمع مني تصاونٌ = وفي بصري غضٌّ وفي منطقي صمتٌ
فحظيَّ إذا من صومي الجوع والظمأ = فإن قلتُ إنني صمتُ يومي فما صمتُ

الوقفه الخامسة: فرحة الصائم

قوله - عليه السلام - : ((وللصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، أما فرحة الصائم عند فطره، فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومنكح فإذا منعت من ذلك في وقت من الأوقات ثم أبيع لها في وقت آخر فرحت بإباحة ما منعت منه خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه، فإن النفوس تفرح بذلك طبعاً، فإن كان ذلك محبوباً لله كان محبوباً لله كان محبوباً شرعاً، والصائم عند فطره كذلك. وأما فرحة عند لقاء ربه فبما يجده عند الله - عزوجل - من ثواب الصيام مدخرًا فيجده أحوج ما كان إليه.

الوقفه السادسة: مشروعية الصيام

سئل بعض السلف لم شرع الصيام؟! قال: ليذوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع، وهذا من بعض حكم الصوم وفوائده.

الوقفه السابعة: قيام رمضان

كان بعض السلف يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليال، وبعضهم في سبع منهم قتادة - رحمه الله - وبعضهم في عشر منهم: أبو رجاء العطاردي - رحمه الله -.

وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها، فقد كان
الأسود - رحمه الله - يقرأ القرآن في كل ليلتين في رمضان، والنخعي -
رحمه الله - يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة، وكان الشافعي - رحمه
الله - في رمضان ستون ختمة.

الوقفه الثامنة: رمضان وأبواب الجنة

يا معشر المسلمين أبشروا، فهذه أبواب الجنة الثمانية في هذا الشهر لاجلكم
قد فتحت ونسماتها على قلوب المؤمنين قد نفتحت وأبواب الجحيم كلها لأجلكم
مغلقة وأقدام إبليس وذريته من أجلكم موثقة.

الوقفه التاسعة: جائزة رمضان

ورد أن مَنْ أتى عليه رمضان صحيحًا مسلمًا، فصام نهاره وصلى وردًا من
ليله وغض بصره وحفظ فرجه ولسانه ويده وحافظه على صلاته جماعة وبكر
إلى الجمعة، فقد صام الشهر واستكمل الأجر وفاز بجائزة الرب التي لا تشبهه
جوائز الأمراء.

الوقفه العاشرة: قوافل الصالحين في رمضان

كانت امرأة حبيب - رحمهم الله - تقول له بالليل قد ذهب الليل وبين أيدينا
طريق بعيد وزاد قليل وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا.

يا نائم الليل كم ترقدُ = قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ

وخذُ من الليلِ وأوقاته = وردًا إذا ما هجع الرُّقدُ

مَنْ نامَ حتى ينقضي ليله = لم يبلغ المنزل أو يجهدُ

قُلْ لذوي الأبواب أهل التقى = قنطرة العرض لكم موعدُ

الوقفه الحادية عشرة: وداع رمضان

قال سعيد عن قتادة - رحمهم الله - كان يقال: مَنْ لم يُغفر له في رمضان فمتى يغفر له، وَمَنْ رُدَّ في ليله القدر متى يصلح من لا يصلح في رمضان، ومتى يصلح من كان فيه من داء الجهالة والغفلة مرضان.

ترحلَّ شهرُ الصبر والهفاه وانصرما = واختصَّ بالفوز في الجناتِ مَنْ خَدَمَا

وأصبح الغافلُ المسكينُ منكسرًا = مثلى فياويحه يا عظمَ ما حُرما

مَنْ فاته الزرعُ في وقتِ البدارِ فما = تراه يحصدُ إلا الهَمَّ والنَّدما

الوقفة الثانية عشرة: الختام

عباد الله إن شهر رمضان قد عزم على الرحيل ولم يبق منه إلا القليل، فمن منكم أحسن فيه، فعليه التمام، ومن فرط فليختمه بالحسنى، والعمل بالختام، فاستغنموا منها ما بقي من الليالي اليسيرة والأيام، واستودعوه عملاً صالحاً يشهد لكم به عند الملك العلام، وودعوه عند فراقه بأزكى تحية وسلام.

سلامٌ مِنَ الرحمنِ كلِّ أوانٍ = على خير شهرٍ قد مضى وزمان

سلام على شهر الصيام فإنه = أمانٌ من الرحمنِ كلِّ أمان

لئنُ فَنيتُ أيامك الغرُّ بَغتةً = فما الحزنُ من قلبي عليك بغان

يا مَنْ فرَطَ في شهره بل في دهره وأضاعه، يا مَنْ بضاعته التسوييف والتفريط وبئست البضاعة، يا مَنْ جعل خصمه القرآن وشهر رمضان كيف ترجو ممن جعلته خصمك الشفاعة.

ويلٌ لمن شفاعته خصماؤه = والصورُ في يومِ القيامةِ ينفخُ

رُبَّ صائمٍ حظه من صيامه الجوع والعطش وقائم حظه من قيامه السهر، كل قيامٍ لا ينهى عن الفحشاء والمنكر لا يزيد صاحبه إلا بُعداً، وكل صيام لا يسان عن قول الزور والعمل به، لا يورث صاحبه إلا مقتاً.

حقيقة الصيام

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٣]. والصوم ضربان كما يقول العلماء، صوم لغوي، وصوم شرعي.

فالصوم في اللغة هو: الإمساك، وكل ممسك عن شيء فهو صائم. وقد ذم أعرابي قومًا، فقال: يصومون عن المعروف، ويفطرون على الفواحش.

وكذلك حقيقة الصيام ترجع إلى اللغة لأن ما من جارحة في بدن الإنسان إلا ويلزمه الصوم في رمضان وفي غير رمضان، فصوم اللسان ترك الكلام إلا من ذكر الله تعالى، وصوم السمع ترك الإصغاء إلى الباطل وإلى ما لا يحل سماعه، وصيام العينين ترك النظر، والغض عن محارم الله تعالى، وصيام اليدين أن تُقبض عما ليس لها بحق ولا تُبسط إلا بما هو لله عز وجل رضى، وصيام البطن أن يُمنع عن أكل الربا والحرام وعن أكل أموال اليتامى ظلماً، وصيام القدمين ألا تسعى في غير طاعة الله سبحانه، وصيام الفرج القعود عن الفواحش. فهذا صيام الجوارح وهو فرض على كل مسلم أبد الدهر في رمضان وفي غيره.

يقول ابن الجوزي - رحمه الله - في كتابه (رياض السامعين): الله الله عباد الله صوموا جوارحكم عن المنكرات، واستعملوها في الطاعات، تفوزوا بنعيم الأبد في قرار الجنات، والتمتع بالنظر إلى جبار الأرض والسماوات.

وشهرُ الصومِ شاهده علينا = بأعمالِ القبائحِ والذنوبِ

فيا رباہ عفوًا منك والطفٌ = بفضلِكَ للمحيرِ والكنيبِ

وهذا الصومُ لا تجعلهُ صومًا = يُصيرنا إلى نارِ اللهبِ

أما الصوم الشرعي فهو: الإمساك عن الأكل والشرب والجماع بنية من قبل الفجر. ولا يخفى على كل لبيب وجه التناسب بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي للصيام.

إنَّ شهر الصوم (رمضان) شهر عظيم زكيّ مبارك كريم، مَنْ أطاع فيه الملك الجبار واتبع فيه السنة والآثار، غفر الله له ما قد سلف من الذنوب والأوزار، وخاصه برحمته من عذاب النار، ومَنْ عصى فيه الملك الجبار، وخالف القرآن والآثار، وعمل الفجار، ولم يوقر شهراً عظمه الإله الستار، غضب عليه مقدار الأقدار، ولعنه كل شيء يختلج بالليل والنهار.

قال تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ...) [البقرة: ١٨٥]. وما جعله الله سبحانه وتعالى هدى فلا يكون ضلالة، وما جعله بياناً فلا يكون جهالة، وما ضَعَفَ فيه الأجر فلا يُجعل بطالة.

قيل: سُمِّيَ شهر رمضان بهذا الاسم، لشدة الحرّ فيه (يقال أرض رمضاء أي شديدة الإلتهاب لشدة حرارتها)، وقيل: أخذ من حرارة الحجارة لما يأخذ القلوب من حرارة الموعظة والفكر والاعتبار بأمر الآخرة، فسُمِّيَ رمضان بذلك لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها، وقيل سُمِّيَ بذلك لأنه شهر يغسل الأبدان غسلًا، ويطهّر القلوب تطهيرًا. وهو شهر الإيقان، وشهر القرآن، وشهر الإحسان، وشهر الرضوان، وشهر الغفران، وشهر تفتّح فيه أبواب الجنان، ويصفد فيه كل شيطان، وهو شهر الأمان والضمان.

يقول ابن الجوزي - رحمه الله -: شهر رمضان شهرٌ فيه تزهر القناديل، وينزل فيه بالرحمة جبريل ويتلى فيه التنزيل، ويسمح فيه للمسافر والعليل.

رمضان للعباد مثل الحرم في أم البلاد، رمضان في الدنيا مثل الجنان في العقبى: سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود، وملكه خلود.

قيل: الشهور الإثنا عشر كمثل أولاد يعقوب عليه السلام، وشهر رمضان بين الشهور كيوسف عليه السلام بين إخوته، فكما أن يوسف أحب الأولاد إلى يعقوب، كذلك رمضان أحب الشهور إلا علام الغيوب.

فهذا شهر رمضان فيه من الرأفة والبركات والنعمة والخيرات، والعتق من النار، والغفران من الملك القهار، ما يغلب جميع الشهور.

وقد ورد عن رسول الله عليه السلام قوله: ((لو يعلم الناس ما لهم في شهر رمضان لتمنّوا أن تكون السنة كلها رمضان...)) وقال أيضاً: ((من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)) وقال أيضاً: ((إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار، وصفدت الشياطين)) وقال عليه السلام: ((إن الجنة لتزین من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان))، وقال - صلى الله عليه وسلم -: ((أتاكم شهر رمضان شهر خير وبركة...)).

وفي الحديث القدسي قال عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى: (... الصوم لي وأنا أجزي به).

فالله الله والحرمان، والتمادي في العصيان والرضى في أدياننا بالنقصان، في الشهر الفاضل شهر رمضان.

ورد عن ذي النون المصري - رحمه الله - قوله: تجوع بالنهار، وقم بالأسحار، تر عجباً من الملك الجبار.

وقال يحيى بن معاذ - رحمه الله -: لو كان الجوع يباع في السوق لكان المرء محقوقاً إذا دخل السوق إن لم يشتتر شيئاً غيره، والله تعالى قد فضلكم بدين الإسلام ومنّ عليكم بشهر الصيام.

فيا أيها المسلم هذا شهر الصيام، شهر رمضان، شهر التوبة والغفران، وهو رسول من عند الملك الديان، أكرمه حق الإكرام، واحفظ فيه لسانك من قبيح الكلام، وبطنك من أكل الربا والحرام وأموال الأرامل والأيتام.

ويا أيها المسلمون، جدّوا واجتهدوا في هذا الشهر بلا إفراط، وخذوا لأنفسكم بالاحتياط.

وبُعْدُ، فهل آن الأوان لأن يكون شهر الصيام شهراً للإحسان والتكافل والتراحم والتواصل والبرّ والتعاون، كي ننال الثواب الجزيل والمغفرة من ربنا العزيز المتعال.

عبادة الصيام

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٣].

أتى شهر رمضان، ونحن غافلون عن الثواب الكثير ساهون عن الملك الكبير، لاهون عن لباس السندس والحريير، متقاعدون عن اليوم العبوس القمطير، نائمون عما أتى به محمد البشير النذير، مصرون على الذنوب والعصيان، مقيمون على الآثام والعدوان، متمادون في الجهالة والطغيان، ومتكلمون بالغيبة والبهتان، قد تمكن من قلوبنا الشيطان فألقى فيها الغفلة والنسيان. أتى شهر رمضان شهر الرحمة والغفران شهر البر والإحسان، شهر مغفرة الديان، شهر العتق من النيران.

قل لأهل الذنوب والآثام = قابلوا بالمتاب شهر الصيام

إنه في الشهور شهر جليل = واجب حقه وكيد الزمام

شهر فيه جزيل الثواب، وهو شهر المتاب، لياليه أنور من الأيام، وأيامه مطهرة من دنس الآثام، وصيامه أفضل الصيام، وقيامه أجل القيام.

قال أبو الفرج ابن الجوزي - رحمه الله - في كتاب (بستان الواعظين) عن شهر رمضان: شهر فضل الله به أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، شهر جعله الله مصباح العام، وواسطة النظام، وأشرف قواعد الإسلام، المشرف بنور الصلاة والصيام والقيام.

في شهر رمضان أنزل الله كتابه، وفتح للتائبين أبوابه، فلا دعاء فيه إلا مسموع، ولا عمل إلا مرفوع، ولا خير إلا مجموع، شهر السينات فيه

مغفورة، والأعمال الحسنة فيه موفورة، والمساجد معمورة، وقلوب المؤمنين مسرورة.

أَيْنَ أَهْلِ الْقِيَامِ لِلَّهِ دَابًّا = بذلوا الجهدَ في رضا الجبارِ

أَنْتُمْ الْآنَ فِي لِيَالٍ عَظَامٍ - قَدْرُهَا زَائِدٌ عَلَى الْأَقْدَارِ

يقول ابن الجوزي - رحمه الله -: الصيام ينقسم إلى أحد عشر ضربًا، صيام الفرض (صيام شهر رمضان)، وصيام الظهر (كقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي)، وصيام الانتقال (أي الانتقال من دين إلى دين الإسلام)، وصيام الوطء في رمضان (وهو كفارة لمن وقع منه مثل ذلك)، وصيام كفارة اليمين، وصيام فدية الأذى، وصيام التمتع والقرآن، وصيام إفساد الحج، وصيام كفارة قتل الصيد، وصيام النوافل، وصيام النذر.

وليحذر المسلم من صيام ستة أيام هي يوم الفطر (عيد الفطر)، ويوم الأضحية (عيد الأضحية)، وثلاثة أيام بعد أيام التشريق، ويوم الشك (اليوم الذي يشك فيه هل هو من شعبان أم من رمضان؟)، على خلاف بين الفقهاء في بعض هذه الأيام، كما أنّ بعض العلماء يضيف إلى هذه الأيام أيامًا آخر مثل يوم الجمعة الذي يكره صيامه منفردًا.

والصوم ثلاثة: صوم الروح وهو قصر الأمل، وصوم العقل وهو مخالفة الهوى، وصوم الجوارح وهو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع.

الصَوْمُ جَنَّةٌ أَقْوَامٍ مِنَ النَّارِ = وَالصَّوْمُ حِصْنٌ لِمَنْ يَخْشَى مِنَ النَّارِ

وَالصَّوْمُ سِتْرٌ لِأَهْلِ الْخَيْرِ كُلِّهِمْ = الْخَائِفِينَ مِنَ الْأَوْزَارِ وَالْعَارِ

فَصَامَ فِيهِ رَجَالٌ يَرْبِحُونَ بِهِ ثَوَابَهُمْ مِنْ عَظِيمِ الشَّانِ غَفَارِ

فَأَصْبَحُوا فِي جَنَانِ الْخُلْدِ قَدْ نَزَلُوا = مِنْ بَيْنِ حُورٍ وَأَشْجَارٍ وَأَنْهَارِ

مر الحسن البصري - رحمه الله - بقوم يضحكون فوقف عليهم وقال: إن الله تعالى قد جعل شهر رمضان مضمارًا لخلقه يستبقون فيه بطاعته فسبق أقوام

ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب للضحك اللآعب في اليوم الذي فاز فيه
المسارعون وخاب فيه الباطلون.

وقد قيل: ليس في العبادات أفضل من الصيام، لأنه باب العبادة. وقد جعل الله
تبارك وتعالى هذا الشهر العظيم كفارة للذنب العظيم وليس في الذنوب إلا
عظيم، لأننا إنما نعصي بها الرب العظيم. وقد قالوا: لا تنظر إلى صغير ذنبك
ولكن انظر إلى من عصيت!!.

والحكم في فرض شهر رمضان، أن الله تعالى أمرنا أن نصوم فيه ونجوع، لأن
الجوع ملاك السلامة في باب الأديان والأبدان عند الحكماء والأطباء. فما ملأ
ابن آدم وعاء شراً من بطنه، والحكم ملك لا يسكن إلا في بيت خال.

وقد قيل شعراً:

تَجَوُّعٌ فَإِنَّ الْجَوْعَ يُورِثُ أَهْلَهُ = عَوَاقِبُ خَيْرٍ عَمَّا الدَّهْرُ دَانِمٌ

وَلَا تَكْ ذَا بَطْنٍ رَغِيبٍ وَشَهْوَةٍ = فَتُصْبِحَ فِي الدُّنْيَا وَقَلْبُكَ هَائِمٌ

قال يحيى بن معاذ - رحمه الله - مرة لأصحابه: مَنْ شَبِعَ مِنَ الطَّعَامِ عَجَزَ
عَنِ الْقِيَامِ، وَمَنْ عَجَزَ عَنِ الْقِيَامِ افْتُضِحَ بَيْنَ الْخِدَامِ، وَإِذَا امْتَلَأَتِ الْمَعْدَةُ رَقَدَتِ
الأعضاء عن الطاعات، وقعدت الجوارح عن العبادات.

وقد قيل: مثل شهر رمضان كمثل رسول أرسله سلطان إلى قوم، فإن أكرموا
شأنه وعظموا مكانه، وشرّفوا منزلته، وعرفوا فضيلته، رجع الرسول إلى
السلطان شاكرًا لأفعالهم، مادحًا لأحوالهم، راضيًا لأعمالهم، فيحبهم السلطان
على ذلك فيحسن إليهم كل الإحسان. وإن استخفوا برعايته وهونوا لعنايته،
ولم ينزلوه منزلته من الإكرام، وفعّلوا به فعل اللنام، فيرجع الرسول إلى
السلطان وقد غضب عليهم من قبيح أفعالهم وسيئ أعمالهم فيغضب السلطان
لغضبه. كذلك يغضب الله سبحانه وتعالى (ولله المثل الأعلى والأعلى) على مَنْ
استخف بحرمة شهر رمضان.

وَبَعْدُ، فَهَلْ أَنْ الْأَوَانِ لِأَنْ يَأْخُذَ شَهْرَ رَمَضَانَ مَوْقِعَهُ مِنْ نَفُوسِنَا، وَأَنْ نَقُومَ
بِأَحْكَامِهِ وَأَدَابِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ، يَرْضَى رَبُّنَا الْمَتَّعَالَ؟!.

محطة الصيام

هاهو رمضان معنا وبيننا من جديد بعد سنة كاملة من الغياب فماذا فعلنا من أجله ولأجله؟ هل استقبلناه بما يليق من الحفاوة والتكريم؟ هل صامت أسلحتنا عن الولوغ في الدم الحرام؟ فمل نجدد حكاية قابيل وهابيل كل يوم؟ هل صامت ألسنتنا عن الفحش والكذب وقول الزور؟ هل صامت أعيننا وأيدينا وأرجلنا عن اقتراف المحرمات والنظر إليها والسعي وراءها؟

هل صامت نياتنا عن التفكير بالإساءة إلى الآخرين؟ وهل عطف كبيرنا على صغيرنا واحترم صغيرنا كبيرنا كما يريد ربنا تعالى؟

هل فكَّ أغنياؤنا رباط القسوة عن قلوبهم فحفت لشهر واحد بالرحمة والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين؟.

هل شعر تجارنا بالغلاء الذي يكوي القلوب ويشقّ الجيوب فلا يستقر فيها ريال. هل شعروا بأن الأسعار التي يرفعونها والأرباح التي يأملون تحقيقها في رمضان فيها مشقة على إخوانهم المسلمين!!!.

إن محطة الصيام التي نمكث فيها شهرًا كاملًا نقهر نفوسنا بالجوع والعطش كي نقودها ولا تقودنا وننتصر عليها ولا تنتصر علينا في معركة الجهاد الأكبر الذي أشار إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، هذه المحطة ينبغي أن نعرف بماذا نتزود منها وماذا نترك.

نتزود في هذه المحطة بشحنة روحية من مواندها الغنية، فتتدارس القرآن والأحاديث، ونتقرب إلى الله عزوجل بالطاعات التي تشحن نفوسنا بقوة الإيمان والقدرة على اجتياز مرحلة ما بعد المحطة، ونترك فيها الطعام والشراب، ونترك الغيبة والنميمة والكذب والغش وأذى الناس، فتصوم ألسنتنا عن السباب وجوارحنا عن الأذى وتصوم أعيننا عن النظر إلى المحرمات وأيدينا عن فعل المنكرات وأرجلنا عن السعي إلى المحظورات.

ومتى فعلنا ذلك أدر كنا أننا صائمون حقًا وأنا معنيون بقول رسول الله عليه السلام: ((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)) رواه البخاري ومسلم.

إذا لم يكن في السمع مني تصاممٌ = وفي مقلتي غضٌّ وفي منطقي صمْتُ
فحظي إذا من صومي الجوع والعطش = وإن قلتُ إنني صمْتُ يومًا فما صمْتُ
وللأسف، فإننا نشاهد في أيامنا هذه ما وصل إليه الناس من فهم لرمضان
وممارسة للصيام، فهم يتبارون في صنع الأطباق المتنوعة ولا يكتفون بطعام
واحد بل يصنعون على موائد الإفطار كل ما اشتتهه نفوسهم أثناء النهار، فإذا
دوى مدفع الإفطار انطلقوا على سجيبتهم يملأون بطونهم من كل نوع حتى
التخمة.

وجهلوا أن رمضان مصنع للرجال وليس مطبخًا للطعام، فلو تجول الإنسان في
الأسواق عشية الإفطار لرأى العجب العجاب من تهافت الناس القادرين على
شراء اللحوم والخضار والحلويات والمأكَل المتنوعة، حتى ترتفع الأسعار تبعًا
لزيادة الطلب وتفقد أحيانًا هذه المواد الغذائية من الأسواق ويتعذر بالتالي على
الفقراء شراء ما يحتاجون منها بريالات محدودة.

يقول القاضي محمد سويد في كتابه الرائع (من رياض الإسلام): إن هناك
ناحية نفسية مهمة هدف إليها الإسلام بإنشاء هذه المحطة الكبرى الرمضانية،
ألا وهي ربط المسلم بالله بحيث يشعر أن هذه الفريضة سرٌّ بينه وبين الله لا
ثالث بينهما.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الله تعالى: (كل عمل ابن آدم له إلا
الصوم فإنه لي وأنا أجزي به). رواه البخاري ومسلم.

ولما كانت دعوة الصائم الممتثل لأوامر الله المجتنب لنواهيه مستجابة في
رمضان، فإن ما ينبغي أن يفعله المسلم الصائم هو أن يتوجه إلى الله بخشوع
لقضاء حوائجه ورغائبه.

فمن المستحب الدعاء عند رؤية هلال رمضان، فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله عليه السلام إذا رأى الهلال قال: ((اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى ربى وربك الله)).

ومن المستحب أن يدعو الصائم عند الإفطار فيقول: اللهم إني لك صمت وبك آمنت وعلى رزقك أفطرت، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله.

ويستحب للصائم أن يتوجه إلى الله بالدعاء في ليالي رمضان حيث تفتح أبواب السماء ويستجيب الله - عز وجل - للدعاء.

ختاماً أقول: إن أعظم هدية حملها إلينا رمضان، بل حملها إلى البشرية جمعاء هي القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى في هذا الشهر المبارك على محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...) [البقرة: ١٨٥].

كما أن هدية رمضان الثانية هي ليلة القدر وهي ليلة نزول القرآن الكريم على محمد عليه الصلاة والسلام، قال سبحانه: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...) [القدر: ١].

وكيف لا تكون هدية عظيمة وفيها انطلقت أنوار العلم والمعرفة ماحية ظلمات الجهل والجاهلية؟

وبعد:

فلو أسهم كل منا بإحياء رمضان في نفسه لعمّ الرخاء ومات الشقاء وذهب البلاء وكنا بنعمة الله إخواناً.

مدرسة الصوم

الصوم هو أحد دعائم الإسلام الخمسة وأحد أركان الدين. جاء في صحيح البخاري ومسلم أن النبي- صلى الله عليه وسلم - قال: ((بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت)).

وقد فرض الله سبحانه صوم رمضان على هذه الأمة المحمدية في شعبان من السنة الثانية من الهجرة قبل وقعة بدر.

أوجب عزوجل علينا الصوم ليخلصنا من أدران المادة جزءًا من الزمن، فهو حرمان مشروع، وفيه خضوع لله وخشوع.

فالواحد منا إذا تألم من الجوع وجدت عنده الأحاسيس ونمت فيه العواطف نحو إخوانه الفقراء والمعوزين.

يقول الأستاذ محمد الحجار في كتابه (صوت المنبر): ما أحوجنا إلى هذه التربية الحكيمة. فننظر إلى إخواننا المعذبين الذي يلتحفون السماء ويفترشون الأرض، نظرة إنصاف ورحمة ونظرة برّ وشفقة.

فالصوم يكسر الكبر ويشعر الإنسان بضعفه وعجزه وأنه في حاجة ماسة إلى لقمة العيش وشربة الماء، وأن حياته متوقفة على الطعام والشراب والهواء، فهو في حاجة إلى ربه دائمًا وأبدًا، يقول عزوجل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر: ١٥].

والصوم يعلم الصبر، فيجعل الإنسان قادرًا على تحمل الأذى والمكاره، وقد سُمي الصيام صبرًا، ووعد الله تعالى الصابرين بالجزاء (إِنَّمَا يُؤَقِّبُ الصَّابِرِينَ

أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) [الزمر: ١٠]، ويقول رسول الهدى: ((ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وقفوا أجورهم)) رواه أحمد والبخاري والبيهقي.

وقال سبحانه في الحديث القدسي: (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به) رواه البخاري ومسلم.

والصوم يُعَلِّمُ الأمانة ويُعَلِّمُ الصدق في المعاملة ويُعَلِّمُ النصح لكل مسلم ويُعَلِّمُ مراقبة الله عزوجل.

فالصوم سرٌّ بين العبد وربّه، الصوم يحرك الشفقة في القلب ويحض على الصدقة فهو يُعَلِّمُ العطف، ويحث على البرّ.

فهو شهر الجود والكرم وشهر البرّ والإحسان فإذا جاع مَنْ أَلْفَ الشيع وحُرِّمَ الغني المترف أسباب المتع، عرف الجوع كيف يقع، وأدرك ألم الفقر والحرمان إذا لذع.

فإنه سبحانه هو المدير الحكيم والمشرع العليم أوجب الصوم لحكم عالية ومرام سامية، وقد أنزل سبحانه في هذا الشهر الكريم، النور المبين والذكر الحكيم والهادي إلى صراط الله المستقيم، كتاباً يهدي للتي هي أقوم، لا يشبع منه العلماء ولا يملئه الأتقياء.

كما أن الصيام يؤثر في الإنسان تأثيراً تظهر آثاره في الأخلاق وفي النفس، فهو سلاح عجيب وضعه الله عزوجل بيد القوة الإنسانية لتقهر به الطبيعة الحيوانية، مما يدفع عن الإنسان غوائل العدوان على الدماء والأراضي والأموال، لأن هذا العدوان إنما يكون من تمرد الصفات الحيوانية.

فالصيام يكسر الشهوات، إذ لا تكسر النفس بشيء كالجوع، ويذكر الصيام بحال الأكباد الجائعة والأجسام العارية والنساء المشردّة، فيرق القلب وتلين النفس.

روى في الآثار أن يوسف عليه السلام سُئل لِمَ تجوع وأنت على خزانين الأرض؟ قال عليه السلام: أخاف إن شُبعت أن أنسى الجائع. ما أروع هذا المظهر النبوي الدال على الإنصاف.

إن الصيام يدعو إلى التحلي بكمارم الأخلاق، إذ يكلف فيه الإنسان أن يحفظ لسانه عن الغيبة ويغض عينه عن النظر إلى الأجنبية، ويصون قلبه الرقيق من وساوس الشياطين، ويحلي الصائم نفسه بالصدق والإخلاص، ويتجنب الشح المذموم والبخل الممقوت.

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم - قال: ((أعطيت أمتي في شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبي قبلي:

١ - أما واحدة: فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان ينظر الله إليهم، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً.

٢ - وأما الثانية: فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك.

٣ - وأما الثالثة: فإن الملائكة تستغفر لهم في كل يوم وليلة.

٤ - وأما الرابعة: فإن الله عزوجل يأمر جنته فيقول لها: استعدي وتزودي لعبادي أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى داري وكرامتي.

٥ - وأما الخامسة: فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً.

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة: ١٨٣].

هذا نداء إلهي يدوي في جنبات الوجود ويحلق في آفاق منبهاً إلى فريضة الصوم.

ختامًا فإن ما ينبغي تأكيده أن الصوم ورمضان مدرسة، فهل آن أوان التعلّم
والتربّي والإفادة من عبر ودروس وحكم وخصال الصيام؟.

فضائل الصوم

الصوم في الشرع إمساك عن الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بنية الصيام، فمن حقق هذا في صيامه كان صياماً صحيحاً في ظاهر الشرع، ولكن قبوله له كقبول سائر العبادات يحتاج مع ذلك إلى مجاهدة ومصابرة في تحقيق غاياته وأهدافه المرجوة شرعاً منها.

فكم من مصل لا يحقق من صلاته إلا الأعمال الظاهرة من قيام وركوع وسجود، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((رب مُصلِّ ليس له من صلاته إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها حتى بلغ عُشرها)).

وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)).

لقد شُرِعَ الصوم من أجل أن تسمو النفوس البشرية إلى عالم الخير، وللترييض على الصفات النبيلة التي تؤهلها للسعادة في الدارين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...).

وقد جعل الله الصوم شهراً في السنة يتزود فيه المؤمنون بحكم الصوم وفضائله لباقي شهور العام حتى يصلوا إلى التقوى بحيث يتقون بتلك الفضائل الشرور والآثام.

ومن أهم حكم الصوم وفضائله أنه يربّي في الصائم المؤمن ملكة الصبر والمصابرة عن الشهوات المفسدة للأخلاق، إذ من ربّى نفسه طيلة شهر رمضان على ترك شهواته المباحة الميسورة امتثالاً لأمر الله تعالى واحتساباً عنده يُرجى منه أن تتربّى عنده ملكة ترك الشهوات طيلة شهور السنة.

يقول الحاج أحمد الحبابي في كتابه (مرونة الإسلام): إن من أهم حكم الصوم تربية ملكة الصبر على المكاره والمشاق، إذ من صبر طيلة أيام شهر كامل

على احتمال مشقة الجوع والعطش سيما في الأيام الطوال الحارة فإنه يُرجى أن تتربى عنده ملكة الصبر في المواطن التي تحتاج إلى ذلك.

ومن فضائل الصيام تربية ملكة الشفقة والرحمة على الفقراء والمساكين، فإنه حينما يشند جوع الصائم وعطشه يشعر بحاجة إخوانه المحتاجين، وربما حمله ذلك على الإحسان إليهم وفي ذلك إصلاح اجتماعي. وبهذا ترتبط فريضة الزكاة بفريضة الصيام برباط ديني اجتماعي إنساني متين.

ومن خصائص شهر رمضان تربية مراقبة الله عزوجل في جميع أعمال الصائم طيلة شهور السنة، إذ عند ترك الصائم كل ما يرغب فيه أثناء أيام صيامه من أكل نفيس وشراب عذب وفاكهة شهية وكل ما يستهويه من الملذات امتثالاً لأمر الله تعالى، فإن من نتائج هذا أن تتقوى ملكة المراقبة ومحاسبة النفس بقية شهور العام.

وفي الصوم فرصة لتربية ملكة الأمانة في شعور الصائم ووجدانه، إذ إن معرفة الصائم بأن الصوم دينٌ عليه، وأمانة في عنقه، ثم قام بواجبات هذه الأمانة ووفى حقوقها، كان أحرى بأداء العبادات والمعاملات الأخرى على خير وجه.

وفريضة الصيام تربي في نفسية الصائم ملكة النظام في جميع أعماله، فإنه حينما يلتزم وقتاً محدداً لصومه وإفطاره وسحوره وقيامه وتلاوته للقرآن وزيارة الأقارب والأصحاب فإن ذلك يربي عنده حب النظام والمحافظة على ترتيب الأعمال.

وفي شهر رمضان يتجلى مظهر الوحدة والاتحاد بين المسلمين، فهم جميعاً يمسون عن كل مفطر في وقت واحد قبيل مطلع الفجر، ثم يقبلون جميعاً على الإفطار في وقت واحد عند غروب الشمس.

ونضيف إلى ما سبق من الخصائص والسمات والفضائل المرتبطة بفريضة الصيام في شهر رمضان المبارك أيضاً، أن في الصوم فرصة لإذابة شحوم المترهلين وإفناء المواد السامة المترسبة في الأبدان، لاسيما أبدان المترفين

أولي النهم قليلي العمل، وتطهير الأمعاء من السموم التي تحدثها البطننة، فكثير من المرضى يتعافون أثناء شهر رمضان، وصدق مَنْ قال: ((صوموا تصحوا)).

ومن يسر الإسلام ومرورته تخفيفه سبحانه وتعالى وترخيصه لأصحاب الأعذار بالفطر في رمضان حيث قال عزوجل: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ) الآية. ومن المعلوم أن الإطاقة أدنى درجات المُكَنَّة والقدرة على الشيء، تقول العرب في الرجل أطاق الشيء إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف.

والمراد (بالذين يطيقونه) الشيوخ الضعاف والمرضى الذين لا يرجى بُرء أمراضهم وَمَنْ في حُكمهم، فهؤلاء لا صيام عليهم وإنما تجب عليهم الفدية وهي إطعام مسكين عن كل يوم من أوسط ما يطعمون أهلهم.

وحاصل ما سبق وخلاصة القوم فإن في فريضة الصيام في شهر رمضان فضائل وحكم وخصائص لا توجد في غيره، مما يعني تأكيد اغتنام هذه الفضائل بنية صادقة وإخلاص لله سبحانه، رجاء الثواب الجزيل.

الخصائص الاقتصادية للصوم

في كتاب المغني لابن قدامة - رحمه الله - عرّف الصوم بأنه الإمساك، يقال صام النهار إذا وقف سير الشمس، قال تعالى إخبارًا عن مريم عليها السلام: (إني نذرت للرحمن صومًا) أي صمتًا، لأنه إمساك عن الكلام.

قال أحد الشعراء:

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ = تَحْتَ الْعُجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللَّجْمَا

ومن ثم فالصوم الشرعي أي في عرف الشرع واصطلاحه هو عبارة عن إمساك بنية عن أشياء مخصوصة في زمن مخصوص من شخص مخصوص، كما قال بذلك علماؤنا.

والصوم له فضل عظيم، فهو سرّ وعمل باطن لا يراه الخلق ولا يدخله الرياء، وهو قهر لعدو الله إبليس اللعين، لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب وما دامت أرض الشهوات مخصبة فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، ويترك الشهوات تضيق عليهم المسالك.

الصوم يربّي في المسلمين ملكة الصبر والقدرة على قهر النفوس وتعويدها تحمّل الشدائد ومتاعب الحياة ومصاعبها.

إنّ اختصار وجبات الطعام اليومية من ثلاث وجبات إلى وجبتين اثنتين فرصة طيبة لخفض مستوى الاستهلاك وهي فرصة مواتية لاقتصاداتنا خصوصاً ونحن أمة مستهلكة أشارت كل الإحصاءات إلى أن أقطارنا كافة تستهلك أكثر من إنتاجها وتستورد أكثر من تصديرها، وما هذا الاستهلاك الزائد دائماً والاستيراد الزائد غالباً إلا عاملان اقتصاديان خطيران تشقى بويلاتهما الموازنات العامة وموازن المدفوعات.

ومن الواضح أن هناك علاقة طردية أصبحت بين شهر رمضان المبارك والاستهلاك المبالغ فيه والمرء يدهش من هذا النهم الذي يستشري لدى الناس في هذا الشهر الكريم. فالكل يركض نحو دائرة الاستهلاك، والاستعداد للاستهلاك في رمضان يبدأ مبكراً مصحوباً بألة جهنمية من الدعاية والإعلانات التي تحاصر الأسرة في كل وقت ومن خلال أكثر من وسيلة.

وبالتالي يكون المرء مهياً تماماً للوقوع في دائرة الاستهلاك الجهنمية، والتي ليس لها حدود دنيا أو قصوى، وإنما هي حالة تستوطن الإنسان في شهر رمضان ولا تتركه إلا بعد أن تتجرد جيوبه وحساباته خاصة أصحاب الدخل الثابت والمحدود من كل الأوراق النقدية بما فيها العملات غير الورقية.

إنّ خطة شاملة لمكافحة الشراهة الاستهلاكية أصبحت مطلوبة في رمضان وغير رمضان.

إنّ الإنفاق البذخي في رمضان أمر لا يمكن أن يتسق مع وضعية مجتمعاتنا الإسلامية التي في أغلبها مجتمعات نامية تتطلب المحافظة على كل جهد وكل إمكانية من الهدر، وما نصنعه في رمضان هو بكل تأكيد هدر لإمكانات مادية، وهدر لقيم سامية، وهدر لسلوك منزلة القناعة.

إنّ هذه الحالة من شراهة الاستهلاك المتنامية فينا تدل على مدى التخلف السلوكي الذي تعيشه مجتمعاتنا الإسلامية، وتعكس واقع المسافة بين المبدأ والفعل، والتي تتسع يوماً بعد يوم.

إنّ التأمل من بُعد لصناديق وأكياس القمامة يؤكد أننا في حاجة إلى ضرورة إعادة النظر في قيمنا الاستهلاكية باتجاه تعديلها لتصبح قيماً إنتاجية أو قيماً استهلاكية رشيدة.

والاستهلاك أو تزايد الاستهلاك معناه المزيد من الاعتماد على الخارج ذلك لأننا لم نصل بعد إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي أو مستوى معقول لتوفير احتياجاتنا الاستهلاكية اعتماداً على مواردنا وجهودنا الذاتية، وهذا له بُعد أخطر يتمثل في وجود حالة تبعية غذائية للآخر الذي يمتلك هذه الموارد ويستطيع أن يتحكم في نوعيتها وجودتها ووقت إرسالها إلينا.

ومن ثم، كان للاستهلاك أبعاد خطيرة كثيرة تهدد حياتنا الاقتصادية وتهدد أيضاً أمننا الوطني فهل يكون شهر رمضان فرصة ومجالاً لامتلاك إرادة التصدي لحالة الاستهلاك الشرهة التي تنتابنا في هذا الشهر الكريم؟.

لقد درجت أمانينا على اغتنام فرصة الصيام لتقويم الروح بفوائد روحية وتقويم الجسم بفوائد جسمية، فهل نعود على اغتنام الفرصة لتقويم اقتصاد الأمة وهو جسمها وروحها من داء عضال هو داء الاستهلاك الدائم من غير إنتاج كاف؟!.

إنّ بعض معاني الصوم أنه إمساك عن شهوة البطن، وبالمعنى الاقتصادي، هو تخفيض الاستهلاك أو على الأقل ضبط الاستهلاك.

إنّ صفة استهلاك المسلم هي الكفاية لا التبذير وإن منفعته وإشباعه يتحقق ليس فقط بالإشباع المادي، بل من خلال الإشباع الروحي بأداء الواجب نحو المسلمين من مال الله الذي رزقه إياه. وإن منفعته تتحقق حتى في قيامه بواجبه نحو أهله وزوجته وولده. ولذا يسعى المسلم إلى مرضاة الله تعالى، فيشكر الله على نعمه، ويحمده كلما وفقه إلى استهلاك شيء من رزق ربه. والمسلم ينفق ماله ليحقق منفعة بسد حاجته، وبلوغ متعته والكفاية عن الحرام، وتحقيق مرضاة الله ونيل ثوابه عزوجل.

إن شهر الصيام فرصة دورية للتعرف على قائمة النفقات الواجبة بالمفهوم الاقتصادي، وعلى قائمة الاستبعاد النفقي، ثم فرصة لترتيب سلم الأولويات، ثم فرصة كذلك للتعرف على مستوى الفائض الممكن.

إن شهر الصوم فرصة لتحقيق ترشيد أفضل، ولتوسيع وعاء الفائض الممكن، ولكن شريطة أن يرتبط بالقاعدة القرآنية الإرشادية المعروفة: كلوا واشربوا ولا تسرفوا، هذه القاعدة ولا شك هي ميدان الترشيد على المستوى الفردي والمستوى العام.

إنّ في شهر رمضان فرصة للقادرين لاستجلاء مشاعر المحتاجين، بما يحدثه الصوم من أثر حقيقي في نفوس القادرين إزاء المحتاجين.

ومما سبق، يمكن القول بأنّ الخصائص الاقتصادية المرتبطة بشهر رمضان هي خصائص كامنة في جوهر الصيام باعتباره مرتبطاً بقوى اقتصادية مثل الاستهلاك والإنفاق والإشباع، ومقدار المنفعة ودرجة الحاجة.

وتحريك هذه الخصائص وتنشيط فاعليتها هو مهمة البشر، على مستوى الأفراد لضبط استهلاكهم وتقويم سلوكهم الاقتصادي، وعلى مستوى

المؤسسات بتوفير النظم الكفيلة بحسن توجيه الأموال وحسن توظيف قوتها الاقتصادية.

والسؤال الدائم عما إذا كانت فوائد الصيام موقوفة على شهره الكريم أم مباحة للانتفاع بها باستمرار؟!.

وجملة القول، فإن أغلب أقطارنا بحاجة إلى الاستمرار في تحريك هذه الخصائص وتنشيط فاعليتها في صيامها وفي إفطارها سواء.

إن تكرار استقبالنا للشهر الكريم بمثابة تذكرة متكررة بهذه الخصائص. وإذا نجحنا في تحقيق هذه الخصائص، علمنا كيف يكون الطريق إلى الله محفوفاً بالسعادة الاقتصادية.

مذاهب الناس في الأكل

سئل أعرابي - كما في الإمتاع والمؤانسة - عن حدّ الشبع؟! قال: أما عندكم يا حاضرة فلا أدري، وأما عندنا في البادية: فما وجدت العين وامتدت إليه اليد، ودار عليه الضرس وأساعه الحلق وانتفخ به البطن واستدارت عليه الحوايا واستغاثت منه المعدة وتقوست منه الأضلاع والتوت عليه المصارين وخيف منه الموت!!.

وقد أحسن شمس الدين محمد بن طولون الصالحي - رحمه الله - في كتاب (دلالة الشكّل على كمية الأكل) عندما بيّن حكم الإسلام في الأكل فوق الشبع.

حيث أكد رحمه الله أنّ الأكل فوق الشبع يحرم، إلا إذا قصد التقوي على صوم الغد، أو لنلا يستحي الضيف. كما لا تجوز الرياضة بتقليل الأكل حتى يضعف عن أداء العبادات، ومن فعل ذلك آثم.

وفي كتاب (الاكتساب في الرزق المستطاب) لمحمد بن الحسن الشيباني - رحمه الله - تفصيل وبيان حيث يقول ابن الحسن - رحمه الله -: ثم السرف في الطعام أنواع، فمن ذلك الأكل فوق الشبع، لقوله عليه الصلاة والسلام: ((ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، فإن كان لآبد فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس))، وقال عليه السلام: ((يكفي ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه))، ولا منفعة في الأكل فوق الشبع، بل فيه مضرّة، فيكون ذلك بمنزلة إلقاء الطعام في مزبلة أو شراً منه.

ولأن ما يزيد على مقدار حاجته من الطعام فيه حق غيره، فهو في تناوله جانٍ على حق الغير، وذلك حرام.

ولأن الأكل فوق الشبع ربما يُمرضه، فيكون ذلك كجراحته نفسه. إلا أن بعض المتأخرين - رحمهم الله - استثنى من ذلك حالة إذا كان له غرض صحيح إلى الأكل فوق الشبع، فحينئذ لا بأس بذلك، بأن يأتيه ضيف بعد تناوله مقدار حاجته فيأكل مع ضيفه لئلا يخجل، وكذا إذا أراد أن يصوم من الغد، فلا بأس بأن يتناول بالليل فوق الشبع ليتقوى على الصوم بالنهار.

ولذا قال النووي - رحمه الله - في شرحه لصحيح مسلم: وما جاء في كراهة الشبع فمحمول على مداومة عليه، لأنه يقسى القلب، وينسي أمر المحتاجين.

ومن باب الطرافة واللطافة أورد ابن طولون في كتابه أخبارًا نادرة عمّن عُرف بالشراهة في الأكل، زيادة على طاقة البشر المعهودة. وأتبع ذلك بذكر الأسباب الطبيّة والطبيعية التي تؤدي إلى ذلك ومضارها، ثم نبّه ووعظ وأورد آدابًا اسلامية عند الإقبال على الطعام والانتهاء منه.

وأجمل ما في كتاب ابن طولون ما أورده عن مذاهب الناس في الأكل، حيث جعلها في عشرين قسمًا، بعضها صحيح واقع، وبعضها تاريخي لم يعد له وجود، وبعضها غريب.

قال ابن طولون - رحمه الله -، قال شيخنا أبو المحاسن ابن المبرد الحنبلي: وقد اختلف الناس في حد الأكل على مذاهب: جدية وهزلية. ومن ذلك:

المذهب الأول: الوارد عن رسول الله ((القيمات يقيم بها الصلب)).

المذهب الثاني: الشبع حتى تكتفي النفس ولا يقدر على الزيادة.

المذهب الثالث: مذهب الرؤساء والأكابر.

المذهب الرابع: مذهب الأمراء والأجناد.

المذهب الخامس: مذهب الفقهاء.

المذهب السادس: مذهب الصوفية.

- المذهب السابع: مذهب الفقراء.
- المذهب الثامن: مذهب المغاربة.
- المذهب التاسع: مذهب العوام.
- المذهب العاشر: مذهب البخل.
- المذهب الحادي عشر: مذهب الطفيليين.
- المذهب الثاني عشر: مذهب الأعراب.
- المذهب الثالث عشر: مذهب المنتجعين.
- المذهب الرابع عشر: مذهب الحشائين.
- المذهب الخامس عشر: مذهب المشائين.
- المذهب السادس عشر: مذهب الشرهين.
- المذهب السابع عشر: مذهب المسرفين.
- المذهب الثامن عشر: مذهب البطرانين.
- المذهب التاسع عشر: مذهب اليساريين.
- المذهب العشرون: مذهب الجزارين.

جاء في كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، قيل لبعضهم ما حدّ الشيع؟ قال: أن يُخشى. وقيل لآخر: ما حدّ الشيع: قال: أن تأكل حتى تدنو من الموت.

وفي بهجة المجالس لابن عبدالبر القرطبي - رحمه الله - أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب يوماً فقال: إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة، مؤنية

للجسم، وعليكم بالقصد في وقتكم، فإنه أبعد عن الأشر، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة. وإن أمرًا لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

وتجدر الإشارة إلى أن الأكل الكثير يكون من أمور:

- ١ - إحتراق وشدة حرارة مزاج.
- ٢ - صحة ومعدة وحسن هضم.
- ٣ - اتساع المحل وموضع الغذاء.
- ٤ - ترك التسمية على الطعام والشراب.
- ٥ - تقدّم جوع، فإن من تجوّع يأكل.
- ٦ - تقدّم مرض، فإنه يحصل للبدن فيه خلو من الأكل، فإذا عوفي أكل.
- ٧ - كفر ونفاق، كما صح الحديث عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم - ((المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء)) صحيح البخاري.

ولا شك أن كثرة الأكل تورث التخم والريح والغليظة في البدن، ولا سيما في المعدة والأعضاء الباطنة، وتورث السُّدد وتُحدث السَّمَن والترهل وكثرة البلغم والكسل والنوم والبلادة.

وقد ورد عن لقمان الحكيم قوله لابنه: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقديماً قيل: مَنْ أكل كثيراً شرب كثيراً، وَمَنْ شرب كثيراً نام كثيراً، وَمَنْ نام كثيراً فاته خيرٌ كثير.

وما أحرى كل مسلم ومسلمة أن يتبع هدي رسول الله- صلى الله عليه وسلم - الذي أمرنا بالتسمية قبل الأكل والأكل باليمين والأكل مما يلي الأكل، ولعق الأصابع للبركة والأكل بثلاث أصابع ولعق القصعة وأكل اللقمة الساقطة بعد

مسح الأذى عنها وأن يكون الأكل أثلثًا: ثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس. كما صح عن رسول الهدى: ((فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)).

وقد قال بعض الأطباء: إن الناس لو عملوا بهذا الحديث لم يسقم أحد!!.

قيل لأحد الأكالين: ما هو حد الشبع عندك؟! فأجاب: أن أكل حتى أبدو مدورًا كالكرة، بحيث يمتليء جميع جوانبي، وحتى يكون بالإمكان أن أتدحرج في أية وضعية كنت، على الظهر أو البطن أو الجنب!.

أين حال هذا الأكل من هدي رسول الله- صلى الله عليه وسلم -القدوة الصالحة والأسوة الحسنة، وصدق سبحانه القائل: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ).

رمضان والغذاء

إن موضوع الطعام والشراب في تاريخ الأمة المسلمة قديم وعريق، فأصوله تستمد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، كما أنّ كتب الفقه والرقائق والمواعظ والزهديات والأخلاق تفرد أبواباً للطعام والشراب، تنهى عن المحرمات، وتأمّر باتباع الآداب الشرعية.

أما اليوم، فقد أصبح الطعام والشراب في حياة أغلب الناس نهماً وشرهاً، واسرافاً وتبذيراً ولذة وغاية. تُهدر في صناعة الأطعمة والأشربة الأموال، وتنصب الموائد المفتوحة، في البيوت والمطاعم ويجري السباق في إقامة الحفلات والمناسبات الباذخة.

وانزلق عامة الناس إلى مساوى التقليد الأعمى للأمم المادية المترفة، واتسمت حياة الكثيرين بالتكلف والإسراف في ولائهم وأعيادهم وحياتهم. حتى أصبحت أعيادنا مظاهر باهظة الثمن ورمضاناتنا في كل عام موسماً للسرف والتترف، بدلاً من أن يكون عبادة وتهجداً.

فتحوّل الغذاء إلى خطر رهيب، وارتفعت صيحات التحذير من مستقبل ينذر بالأخطار وباتت الحاجة ماسة للأمن الاجتماعي والاقتصادي والغذائي وترشيد الانفاق والاستهلاك.

إنّ الإنسان كائن حيّ، يقوم بوظائف مهمة، عبادة الله ثم إعمار الأرض وإقامة مبادئ العدل والخير. وهذا يجعله بحاجة إلى الطعام، كي ينمو ويعيش ويتحرك ويعمل يحتاج إلى الماء، إذ لا يستطيع الإنسان البقاء حياً لمدة طويلة بلا ماء.

فاستجابة الكائن البشري لغريزة الطعام والشراب أمر فطري. كما أنّ المحافظة على القوم الغذائي المتنوع والمتوازن مع التوسط والاعتدال يمنح الإنسان في مراحل عمره جسماً قوياً وصحة دائمة وعمراً مباركاً ومديداً.

إذ لا يكفي الإنسان في طعامه وشرابه أن يتناول نوعًا واحدًا، فلا بد من توافر الاحتياجات الأساسية من مثل: الماء، والسكريات، والبروتينات، والشحوم والدهون، والفيتامينات، وبعض العناصر المعدنية.

إنَّ الإنسان إذا أكل ما يسد به جوعه، وشرب ما يُسكن به ظمأه، فإن هذا مطلوب عقلاً، ومندوب إليه شرعاً، لما فيه من حفظ النفس وصيانة الحواس.

يقول محي الدين مستوفى كتابه (الطعام والشراب بين الاعتدال والإسراف):
إذا كانت التخمّة تُمرض وتميت، فإن الحرمان يُمرض النفس ويُفتر عن العبادة، أما الوسطية فإنها تنشط النفس وتطهر روحانيتها. فالاعتدال توسط بين التقييد والإسراف، وبين البخل والانفاق الزائد عن الحلال في المأكل والمشرب.

وقد حث رسول الهدى عليه السلام على الاعتدال وحضّ على التقليل من الطعام والشراب، فقال عليه الصلاة والسلام: ((الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن يأكل في معي واحد)) رواه مسلم.

قال حاتم الطائي ذاماً كثرة الأكل:

فَبَاتَكَ إِنْ أُعْطِيتَ بَطْنَكَ سُؤْلُهُ = وَفَرَجَكَ نَالَا مِنْتَهُي الذَّمَّ أَجْمَعَا

إنَّ الاعتدال، إذن هو: التوسط بين الجوع والتخمّة، بالتقليل من كمية الطعام والشراب، دون أن ينقص عن حاجة البدن والعمل. وفي ذلك فوائد جمة منها: صحة الجسم، وجودة الفهم، وقوة الحفظ وقلة النوم، وخفة النفس. قال بعض الحكماء: أكبر الدواء تقدير الغذاء.

وفي المقابل، فإن الإقبال على الطعام بشره زائد، يجعل الأغذية عند النهمين المسرفين هدفاً وغاية، يبذلون من أجلها الأموال الباهظة، ويمضون أوقاتاً

طويلة في الأسواق، يشتررون ألوان الأطعمة. وهؤلاء الذين جعلوا همهم بطونهم، وأهدافهم لذاتهم وشهواتهم، يضمنون بأموالهم عن مساعدة بئس أو إعانة فقير، فنتج عن ذلك بطون جائعة وأموال ضائعة.

إنّ الإسراف والتبذير والترف والمباهاة سلوكيات استهلاكية خطيرة دخلت مع الأسف حياة الناس، وشملت معظم جوانب الحياة المختلفة، فهناك التنوع في الأطعمة والأشربة في الدعوات العامة والمناسبات وولائم الأعراس التي تكلف أموالاً طائلة، وهناك الموائد المفتوحة المشتملة على أصناف عديدة، لقاء مبالغ محددة عن كل شخص وهناك الولائم المخصصة في حالات الوفاة والمآتم.

فيا عجباً من مجتمع يُقيم الأفراح والولائم والمجتمعات المسلمة تعاني من الأحزان والمآتم، وقديماً قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كلمته المشهورة: ما جاع فقير إلا بما تمتع به غني.

ورد عن القاضي عياض - رحمه الله - قوله: إنّ كثرة الأكل والشرب دليل على النهم والحرص والشّره وغلبة الشهوة، وهي مسبب لمضار الدنيا والآخرة وجالب لأدواء الجسد وخنار النفس أي: فتورها.

إنّ الإسراف في تناول الطعام والشراب يؤدي إلى اختزانها في الجسم، وتحولها إلى لحم وشحم وبدانة وبطنة، تقعد بالإنسان عن كثير من الأعمال ونشاطاته. وقديماً قيل: البطنة تذهب الفطنة.

وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قولته المشهورة وحكمته المأثورة: إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة، مؤذية للجسم، وعليكم بالقصد في قوتكم، فإنه أبعد عن الأشر، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة، وإن امرأً لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

ومن طريف القول ما أجاب مسلمة بن عبد الملك ملك الروم، حين سئل: ما تعدنّ الأحمق فيكم؟ قال مسلمة: الذي يملأ بطنه من كل ما وجد.

وكان فرقد - رحمه الله - يقول لأصحابه ناصحًا: إذا أكلتم فشَدُّوا الأزر على أوساطكم، وصغِّروا اللُّقْم، وشدِّدوا المَضْغ، ومُصِّوا الماءَ مَصًّا، ولا يحلَّ أحلكم إزاره فيتسع معاه، وليأكل كلُّ واحدٍ من بين يديه.

وقد أجمعت الأطباء على أنّ رأس الداء إدخال الطعام، وقالوا: أكثر العطل إنما يتولد من فضول وزوائد الطعام.

إن مراتب الطعام والشراب (الغذاء) كما قسّم ذلك ابن قيم الجوزية - رحمه الله - في كتابه (الطب النبوي) مراتب ثلاثة: مرتبة الحاجة، ثم مرتبة الكفاية، وأخيرًا مرتبة الفضلة.

وللأسف، ففي رمضان تزداد مصروفات الأسر لمجابهة الشراهة الاستهلاكية ونهم التسوق والاتفاق المرتفع، إذ يتحول النوم إلى النهار، والأكل والزيارات والتجول في الشوارع وارتياح المنتزهات إلى الليل ويستهلك الفرد في وجبتي الإفطار والسحور أضعاف ما كان يستهلكه في ثلاث وجبات قبل حلول رمضان المبارك. حتى أصبح مألوفًا في أمسيات شهر رمضان كثرة حالات الإسعاف بسبب التخمّة على موائد الإفطار.

وكم يلحق الأفراد والأسر في عصرنا الحاضر من مشكلات وأخطار، وهم يلهثون وراء تقليد بعضهم في إقامة الحفلات، وتكثف المناسبات، والخروج إلى المطاعم حيث الموائد المفتوحة، والمبالغة في تناول الأطعمة والأشربة بلا فيود ولا حدود في كل شهور السنة وفي رمضان خاصة.

وختامًا أقول: إن الاعتدال يؤدي إلى وفر اقتصادي في حياة الفرد والأسرة وإلى قوة مالية وتجارية في حياة الدولة والأمة. وصدق الله القائل (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) [الفرقان: ٦٧].

الصيام والطعام

رمضان ذلك الشهر المبارك، شهر السلام والصيام أحاله بعض المسلمين إلى شهر طعام، فكان حظهم في الاحتفال به والترحيب بقدومه هو مجرد تغيير مواعيد وألوان وأصناف الأطعمة التي يدسونها في بطونهم غير عابئين وغير مدركين للمرامي الأيالة النبيلة من الصوم.

إن لشهر الصيام مع الطعام نوادر وحكايات وأشعارًا وأخبارًا، وبدلاً من أن يشعر بعض المسلمين بآلام الفقراء والمعدمين وبمن تصيبهم المجاعات في كثير من أنحاء المعمورة فيتوجهون إلى العلي القدير بالشكر على نعمه الظاهرة والباطنة ويقتصدون في الطعام ويسارعون إلى الخيرات، فإنهم يفرطون في التغذية.

وأول مظاهر الإفراط في التغذية في شهر رمضان زيادة أوزانهم بصورة مفرطة ونسوا أو تناسوا أن بعض المصحات العالمية تمارس عملية تجويع المرضى وتجبرهم على الصوم والامتناع عن الغذاء وذلك بغية الوصول بهم إلى الوزن الطبيعي والصحي.

يقول الأستاذ محمد مبارك في كتابه الرائع (بستان رمضان): ليس من شك في أن الغذاء يعتبر من أهم الضروريات الحياتية. فلا غنى عن الغذاء بألوانه لكل كائن حي.

فكما جعل الله سبحانه وتعالى من الماء كل شيء حي، فإن كل شيء حي في حاجة إلى الغذاء.

قالوا: أربعة حدثت بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: الموائد والمناخل والأشنان (الصابون) والشبع.

يقول الغزالي - رحمه الله - الأشنان ابتداء مستحسن من أجل النظافة ووضع الطعام على المائدة لا بأس به، ونخل الدقيق تطيب للطعام ما لم يود إلى التمتع المفرط. وأما الشبغ فهو أشد الأربعة، فإنه يدعو إلى تحريك الشهوة وتحريك الأدوية (الأمراض) في البدن.

يحدثنا كتاب الموشى عن عيوب الآكلين، ويبين لنا ما ينبغي أن يعمد إليه الطاعم من آداب إذا جلس إلى المائدة: أن تصغير اللقمة خير والدفع عن الشره والنهم خير ومن آداب الطاعمين أنهم لا يأكلون الكرش ولا الطحال والرنة ولا يأكلون الثريد (الخبز الملتخ بمرق اللحم) ولا يتبعون الدسم ولا يملأون باللقم أفواههم ولا يعجلون في مضغهم ولا يأكلون بجانب الشدقين ولا يزاوجون بين اللقمتين.

وفي عيون الأخبار، أن رجلاً أوصى ابنه فقال: إذا أكلت فضمّ شفّتك ولا تتلفتن يميناً وشمالاً ولا تلقمن بسكين أبداً ولا تجلس قبل من هم أسنّ منك وأرفع منزلة ولا تمسح بثياب بدنك.

جاء رجل بجوارش (مهضم) إلى ابن عمر - رضي الله عنهما - فقال: ما هذا؟ قال: شيء يهضم الطعام. قال: ما أصنع به؟ إنه ليأتي عليّ الشهر ما أشبع فيه من طعام.

ورد عن علي كرم الله وجهه قوله: البطنة تذهب الفطنة.

وقال ابن المقفع: كانت ملوك الأعاجم إذا رأت الرجل نهماً شرهاً أخرجوه من طبقة الجد إلى طبقة الهزل ومن باب التعظيم إلى باب الاحتقار.

دخل أحد الحمقى على الخليفة هارون الرشيد في إحدى الليالي الرمضانية وهو يأكل، فقال له الرشيد: هل لك في العشاء؟ فأجابه: إني صائم يا أمير المؤمنين. فسأله الرشيد: أمواصل أنت؟ فأجابه: لا، ولكنني وجدت صيام الليل أسهل من صيام النهار وحلاوة الطعام في النهار أفضل من حلاوته في الليل.

ورد عن القسطلاني قوله: إذا شبع الصائم عند فطره فقد قصر فيما يقتضي المزيد من أجره، فالشبع يورث القسوة ويوفر الجفوة ويثير النوم ويجلب الكسل عن الطاعة.

كان محمد بن الجهم وهو من رؤساء أهل البخل، يقول: وددت أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الشعراء وعشرة من الخطباء وعشرة من الأدباء، تواطأوا على ذمي واستحلوا شمتي، حتى ينشر عنهم ذلك في الآفاق، فلا يمتد إلي أمل أمل ولا ينبسط نحوي رجاء راج. قال له أصحابه ذات يوم: إنما نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استحسانك لقيامنا. فقال: علامة ذلك أن أقول: يا غلام.. هات الغداء!!!.

اقتصاديات التخمة

إن الإنسان إذا أكثر من الطعام لم يستطع له هضمًا، حيث يصاب بالتخمة وعسر الهضم، وقد يحدث أن تصاب المعدة فيفقد المرء شهيته للأكل وإن تناول طعامًا لم يستطع له هضمًا فقد يصاب نتيجة لذلك بالإسهال أو الإمساك، كما أن الإسراف في الطعام يؤدي إلى البدانة ومن ثم يتعرض لأمراض القلب وارتفاع الضغط وأمراض الكلى والسكر.

إن العادات السيئة والمفاهيم الاجتماعية الخاطئة قد تسيطر على بعض الأفراد، بحيث تصبح هذه العادات قيمًا اجتماعية، ولو بحثنا عن أصل هذه العادات، لوجدناها تتمثل في هوى النفس وحب الظهور والتقليد الأعمى.

ومن هذه العادات المنافية للآداب الإسلامية عادة المبالغة في الأكل إلى حد التخمة والشراهة والبطنة بحيث يتناول الفرد الطعام عدة مرات في اليوم إلى حد الامتلاء والشبع.

وذلك ولا شك يعتبر مرضًا وضررًا واسرافًا منهياً عنه، إذ يجدر بالمسلم أن يعرف حدوده، ويلتزم هدي الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم - وصحبه

الكرام والسلف الصالح من التخفف في الطعام والابتعاد عن الشره والنهم والجشع.

فقد ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله لأبي جحيفة رضي الله عنه: ((كُفْنَا جُشَاكَ (التكرع وهو صوت يخرج من المعدة عند امتلائها)، وقد تجشأ في مجلس رسول الله، ثم أردف رسول الله قائلاً: فَإِنَّ أَطْوَلَ النَّاسِ جَوْعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَكْثَرُهُمْ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا)).

كما أنه عليه الصلاة والسلام وقد رأى رجلاً عظيم البطن، فأومئ إليه، وقال له: ((لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك)).

إنَّ الهدي النبوي ينص على القاعدة الذهبية التالية: ((ما ملأ ابن آدم وعاءً قطُّ شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً، فنلت ل طعامه، وتلت لشرابه، وتلت لنفسه)).

وقد قال ابن قيم الجوزية - رحمه الله - معلقاً على هذا الحديث: إن مراتب الغذاء - كما يتضح من حديث عليه السلام - ثلاثة: إحداها: مرتبة الحاجة، والثانية: مرتبة الكفاية، والثالثة: مرتبة الفضلة.

كما ورد عن الفاروق رضي الله عنه قوله:

إياكم والبطننة في الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، ومكسلة عن الصلاة.

ولذا قيل: البطننة تذهب الفطنة. كما ورد عن الشافعي - رحمه الله - قوله: ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة - رحمه الله - فقيل له لِمَ؟ قال: لأنه لا يعدو العاقل إحدى حالتين: إما أن يهتم

لآخرته ومعاده، أو لذنياه ومعاشه، والشحم مع الهمة لا ينعقد، فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم، فينعقد الشحم.

أما اليوم، فيلاحظ أن الدنيا أصبحت عند كثير من الناس أكبر همهم ومبلغ علمهم، فأصبح الطعام لهم هدفًا لا وسيلة، فتراهم يبحثون في الأسواق عن أنواع الطعام، ويسرفون في قضاء أوقاتهم في المحلات التجارية والأسواق فيشترون ما استجدت صناعته واختلف نوعه ولونه وساعد على ذلك التطور الكبير في صناعات الأغذية، فترى أصناف الأجبان وكذلك اللحوم والحلويات والمعلبات وما فتح الله به على الناس في هذا الزمان مما لم يشهده عصر سابق.

وكان الأولى والأجدر بهم أن يرعوا هذه النعم ويحافظوا عليها ويؤدوا حق شكرها ويستهلكوها على الوجه المفيد النافع دون مبالغة أو اسراف أو شراهة تؤدي بهم إلى التخمّة ومن ثم السمنة والبدانة.

إنّ هناك سلوكيات اقتصادية بدأت في الظهور والانتشار في مجتمعاتنا تمثل عبئًا اقتصاديًا، ولها آثار ضارة على الاقتصاد الوطني، ينبغي أن يتصدى لها رجال الفكر والاقتصاد والسياسة. وتعتبر سلوكيات التخمّة وإدمان الشراء، والاستهلاك الشره، أمثلة نموذجية لتلك السلوكيات الاقتصادية.

وما زلنا نجد عند أغلب الأسرة، حتى ذات الدخل المحدود، تصرفات لا مبرر لها سوى العادات والهوى والتقليد والمباهاة، خدمًا ومربيات وسائقين مستوردين من الخارج، واحتفالات مكلفة، وملابس للنساء والأطفال بأسعار مرتفعة جدًا، وبنود استهلاكية تُثقل كاهل ميزانية الأسرة وما ذلك إلا لتلبية دواعي الاستعراض الاجتماعي وحب الظهور.

إنّ ظاهرة تخمّة الاستهلاك وعادة الصرف والانفاق غير الموجهة، من العادات والظواهر التي أدت إليها ظروف الحياة الجديدة، نتيجة النقلة الاقتصادية التي مرت بها مجتمعاتنا، وقد ساعد على انتشار تلك الظواهر وبروز العقلية الاستهلاكية وانتشار الثقافة الاستهلاكية عوامل عديدة منها: إغراق السوق

بصنوف الكماليات والإعلان عنها بطريقة مثيرة، وكذا انخفاض الوعي الاستهلاكي لدى أفراد المجتمع وعدم توجيه أفراد المجتمع منذ نعومة أظافرهم وتعويدهم على السلوك الاستهلاكي الرشيد المنضبط المهدي بآداب الإسلام المنظمة للاستهلاك.

ومن خلال دراسات وتحقيقات عديدة، تبين أن الإعلانات التجارية تمارس دوراً كبيراً في خداع المستهلك وفي دفعه إلى المزيد من الشراء، لأشياء كثيرة لا حاجة به إليه فعلاً، وهذا هو الإسراف بعينه، بل وتمارس الإعلانات دوراً في تغليب البواعث الوجدانية كالتقليد وحب التميز والزهور.

ويُعدّ الإعلان مسؤولاً إلى حد كبير عن تكوين عادات شرائية خاطئة، إذ قد يعمد المعنون إلى تشكيك الناس في سلع قديمة أو سلع جديدة في حوزتهم لم تستنفذ، لينصرفوا عنها إلى شراء سلع جديدة أخرى.

إنّ الكم الهائل من الإعلانات الدعائية التي تزخر بها أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة في جميع دول العالم هو أحد المقاييس الأمينة لنزعة الاستهلاك التي ألمت بالبشر في هذا الزمن. إذ يلجأ المنتجون إلى كل وسيلة متاحة لحث الناس على زيادة استهلاكهم.

ولا يقتصر الأمر على الإعلانات والدعاية الجذابة وإنما تتجاوزهما إلى أساليب أخرى، مثل التسهيلات في عمليات الشراء، وحمل السلع إلى المستهلك في مقر سكنه أو عمله، وفي أساليب الدفع بالبطاقات والأقساط، ومكافأة المشتري كلما كثف من سلوكه الاستهلاكي والشرائي.

وقد سهّل الحاسب الآلي مهمة المنتجين والمسوّقين، إذ يدرس المنتجون من خلال نفسية المستهلك، أنسب أساليب الدعاية ووسائل الإعلان لسلعهم ومنتجاتهم.

وحقيقة الأمر، فكلما ازداد الاستهلاك كلما نمت جبال النفايات على وجه الأرض بما تحويه من مواد مستعصية على التحلل والهضم، ومن مواد متباينة السُّمية.

وثمة أنماط من الاستهلاك ينجم عنها تلوث البيئة بمواد ضارة وسموم، من مثل: الاستهلاك الترفي للأثاث المنزلي في زمننا المعاصر، ومثل الأدوية والعقاقير التي تنتهي فترات صلاحيتها.

ولذا قيل: الاستهلاك هو طوفان التلوث القادم.

وقد ترتب على فشو الاستهلاك الشره وانتشاره في المجتمع عدد من الآثار والنتائج الضارة من مثل: انشغال العقلية الاستهلاكية بالتبذير وعدم الاكتراث بالنعم، وكذا الاتلاف والنبذ والاستبعاد لكثير من الطيبات والسلع، إضافة إلى التفكك الاجتماعي، نتيجة بروز القيم المادية وسيادتها. ولذا قيل: الاستهلاك يعتبر عائقًا أمام التوجيه الاجتماعي الإيجابي.

ومن المعلوم، أنّ أوجه الصرف الباذخ أو غير الضروري ينبغي على الأفراد والأسر من المواطنين إعادة النظر فيها للتخلص من الأنماط البذخية والاستهلاكية المفرطة ومظاهر المباهاة والتعالي المتمثلة في مناسبات الأعراس والولائم والمآتم.

ومن المعروف اقتصاديًا في كل دول العالم بأن أنسب وسيلة لتقريب القرارات الاستهلاكية للأفراد هي الرشد الاقتصادي المتمثل في الأسعار، بحيث تكون لهذه الأسعار فعالية في التخلص من الاستهلاك التبذيري أو لأغراض التفاخر والمباهاة.

لقد شاعت في دول غرب أوروبا مقالة: (لقد ولد الأمريكي لكي يشترى)، وهذه عبارة تدلنا على عقلية الغرب الاستهلاكية، التي تنادي بالحرية والنفعية والملكية الخاصة غير المنضبطة، وإن كانت هذه العبارة صحيحة عند الغرب، فليس لها مصداقية مماثلة عند المسلمين، لأن المسلم ولد لكي يعبد ربّه، ومن ثم يقوم بمتطلبات الخلافة والعمارة، وسعيه في طلب المعاش وأكله وشربه

ولبسه وسائر أعماله كلها، إذا صدقت النية وخلصت وابتغى المسلم وجه ربه
وأتبع هدي نبيه عليه الصلاة والسلام، فإنها عبادة من العبادات وقربة من
القربات، يثاب عليها ويجز الجزاء الأوفى؛ فالمسلم يأكل ليعيش، ويعيش ليعبد
ربه، في حين أن الكافر يأكل ليعيش، ويعيش ليأكل مصداقاً لقوله تعالى: (إِنَّ
هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...) وقوله سبحانه: (ذُرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُهُمُ
الْأَمْلُ...) وقوله عز وجل: (أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...).

إنَّ الشريعة الإسلامية ومن خلال الضوابط والتوجيهات التي افترضتها على
نمط الاستهلاك وسلوك المستهلك المسلم تمارس تأثيراً مباشراً في تحديد
نوعية الطلب وحجم واتجاهات نموه، وذلك يؤثر بالتالي في حجم الموارد
المطلوبة وتخصيصها لانتاج الطيبات التي تشبع احتياجات المجتمع.

إنَّ ضوابط السلوك الاستهلاكي من حيث كراهية المباهاة والتظاهر، وتفضيل
التقشف و البساطة والاعتدال في المعيشة تؤدي بصورة غير مباشرة للحد من
انتاج السلع الكمالية أو السلع ذات المحتوى الترفي، حتى يتحقق للمجتمع
مزيداً من النمو والرفاه والاستقرار الاقتصادي.

الجوع مفتاح الآخرة

إنّ فضول الطعام داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشر، إذ يحرك الجوارح إلى المعاصي ويثقلها عن الطاعات ويكفي بهذين شرًا.

يقول ابن قيم الجوزية - رحمه الله -: كم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها، فمن وقى شر بطنه فقد وقى شرًا عظيمًا، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

ولو نلّل الإنسان نفسه بالجوع وضيق به مجاري الشيطان لأذعنت لطاعة الله عزوجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان.

إذ أنّ أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدوية والآفات.

إنّ على المرء أن يتجنب الشبع والتخمة اتباعًا لقوله عليه الصلاة والسلام: ((ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يفعل فثلث لظعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه)) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم.

إن النفس البشرية إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت. يقول أبو سليمان الداراني - رحمه الله - في ذلك: إن النفس إذا جاعت وعطشت صفا القلب ورق. وإذا شبعت ورويت عمى القلب.

ونحن في زمن مال فيه كثير من النار إلى الإسراف والبذخ والتبذير والتفاخر بالمآكل والمشرب والمراكب والمساكن، وما علموا أنّ المبذر أخ للشيطان)

وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧)) [الإسراء: ٢٦-٢٧]، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ: (... وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) [الأعراف: ٣٢]، وَأَنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَنْ كُلِّ نَعِيمٍ (ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)) [التكاثر: ٨]، وَأَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ سَائِلُهُمْ عَنِ الطَّيِّبَاتِ (... أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ...) [الأحقاف: ٢٠].

وما عملوا أَنْ أَكْثَرَ النَّاسِ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلَهُمْ جُوعًا فِي الْآخِرَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيَّةِ وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ، وَأَنَّ شَرَارَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّذِينَ عُدُّوا بِالنَّعِيمِ يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ، وَأَنَّ مِنَ السَّرْفِ أَنْ نَأْكُلَ كُلَّ مَا شِئْنَا وَاشْتَهَيْنَا، وَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى يَمَقَّتْ ثَلَاثَةٌ: الضَّحْكُ بغير عَجَبٍ، وَالْأَكْلُ مِنْ غَيْرِ جُوعٍ، وَالنُّوْمُ بِالنَّهَارِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ.

سئل سهل التستري - رحمه الله - : الرجل يأكل في اليوم أكلة، قال: أكل الصديقين، قيل له: فأكلتان، قال: أكل المؤمنين، قيل له: فثلاث أكلات، فقال: قل لأهله يبنوا له معقفاً.

جاء في حلية الأولياء الأبيات الشعرية التالية:

وجدتُ الجوعَ يطْرُدُه رَغِيْفٌ = ومَلَأُ الكَفَّ مِنْ مَاءِ الفِرَاتِ

وقَلَّ الطَّعْمُ عَوْنٌ للمصلي = وكَثُرَ الطَّعْمُ عَوْنٌ للِسْبَاتِ

ورد عن الشافعي - رحمه الله - قوله: ما شبعت منذ ست عشرة سنة، لأنَّ الشَّبْعَ يثقل البدنَ ويقسى القلبَ، ويزيل الفطنةَ ويجلب النومَ، ويضعف صاحبه عن العبادة.

وورد عن جَمْعٍ مِنَ العُلَمَاءِ وَالفُقَهَاءِ أَنَّ فِي الجُوعِ فَوَائِدَ جَمَّةٍ وَمِنْ ذَلِكَ:

أولاً: صفاء القلب وإيقاد القريحة وانهاد البصيرة، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب.

ثانياً: رقة القلب وصفافوه الذي به يتهياً لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر.

ثالثاً: الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى.

رابعاً: تذكر بلاء الله وعذابه وأهل البلاء، فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع.

خامساً: كسر شهوات المعاصي، والاستيلاء على النفس الأمانة بالسوء، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة.

سادساً: دفع النوم ودوام السهر، فإن من شبع شرب كثيراً ومن كثر شربه كثر نومه، وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب.

سابعاً: تيسير المواظبة على العبادة، فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات، لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل.

ثامناً: صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضلة الأخطا في المعدة والعروق، وفي الجوع ما يمنع ذلك.

تاسعاً: خفة المؤونة، فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له.

عاشراً: الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته كل متصدق يرجو وجه الله.

فهذه عشر فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تنتهي فوائدها فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة.

وقد أشار أبو سليمان الداراني - رحمه الله - إلى ست آفات من الشبّع قال:
مَنْ شَبِعَ دَخَلَ عَلَيْهِ سِتُّ آفَاتٍ: فَفُتُّ حَلَاوَةُ الْمَنَاجَاةِ، وَتَعَذَّرَ حِفْظُ الْحِكْمَةِ،
وَحَرَمَانَ الشَّفَقَةِ عَلَى الْخَلْقِ، لِأَنَّهُ إِذَا شَبِعَ ظَنَّ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ شِبَاعٌ، وَتُقَلُّ
العبادة، وزيادة الشهوات، والدوران حول المزابل.

ثم إن الأكل مدموم في ثلاثة أحوال:

إن كان من أهل العبادة فيكسل، وإن كان مكتسباً فلا يسلم من الآفات، وإن كان
ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه.

والتخمة أصل كل داء، فلو قيل لأهل القبور: ما كان سبب آجالكم؟ لقالوا:
التخم.

ومن ثم، فلا ينبغي للمرء أن يشبع اليوم في الحلال، لأنه إذا شبع من الحلال،
دعته نفسه إلى الحرام.

وصدق مَنْ قال: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبّع مفتاح الدنيا وباب
الرغبة.

اقتصاديات الترفه

تنتشر ظاهرة الترفه في بعض المجتمعات على شكل إسراف في الانفاق على السلع الترفية والكمالية، ولما كان هذا النوع من الانفاق مقترناً بالمستويات العالية من الدخول، فقد كان وجوده في الدول ذات الدخل المنخفض التي تخلو من مظاهر البذخ والاسراف، ذلك أن طبقة الأغنياء في البلاد النامية تنفق جانباً كبيراً من دخلها في استيراد كثير من السلع المعمرة وغير المعمرة التي لا تتناسب بأي حال من الأحوال مع واقع بلادهم.

إن الاستهلاك الترفي انفاق على سلع كمالية وفي مناسبات غير ضرورية، يشوبه الإسراف والتبذير بقصد حب التباهي والظهور وتعويض نقص اجتماعي معين، كما أن الاستهلاك الترفي يعتبر استنزافاً للموارد ولدخول الأفراد، إذ هو انفاق بدون عائد، ويعتبر من جهة ثانية استهلاكاً غير ضروري، ويدخل في إطار إهدار الثروة.

يقول ثورستين فبلن في كتابه (نظرية الطبقة المترفة): إن ظاهرة الاستهلاك الترفي تُطلق على استهلاك بعض أنواع السلع كالماليس وملابس النساء، التي لا تقدر لصفاتها الذاتية، ولكن تقدر وفقاً لما تمثله من مكانة اجتماعية وسمو نفسي.

وهنا تفقد نظرية العرض والطلب مصداقيتها في واقع الحياة، إذ تؤدي مظاهر الثراء والمركز الاجتماعي إلى الإقبال المتزايد على طلب هذه السلع كلما ارتفع ثمنها، بعكس ما تفترضه النظرية الاقتصادية، وتقل الكميات المطلوبة منها إذا انخفض سعرها، وهذا خاصة في ظل وجود ظاهرة الاستهلاك المظهري.

وقد بدأت ظاهرة الاستهلاك الترفي في الانتقال إلى ذوي الدخل المحدود، غير مدركين لحجم مخاطر هذا الاستهلاك. فقد اتجه بعضهم إلى اكتساب المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة، لاشباع رغباتهم الاستهلاكية.

إن من أبرز أوجه السلبيات التي تتعرض لها الأمم والحضارات، وتكون معول هدم لكل ما بُني وأنتج هو استئراء داء الاستهلاك في نفوس الأفراد. فالاستهلاك الترفي ينمي في الإنسان الترهل ويبعده عن القيم، وقد قال تعالى: (أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ) . وقال عزوجل: (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) [الهمزة: ٣].

إن الإدمان على الاستهلاك الترفي لا يقل خطراً ودماراً نفسياً عن خطر الإدمان على الكحول والمخدرات. فقد يكون ذلك ردة فعل للكآبة والتوتر النفسي وحالات القلق، فيجد المرء المتنفس الوحيد له في الإغراق بالشراء والاستهلاك، فقد يشتري المستهلك سلعاً ليس في حاجة إليها.

ولا شك أن للمال سحرًا وجاذبية قوية بالنسبة للإنسان تجعله يُنشد إليه ويسير باتجاهه، متصورًا أن المال سيحقق له كل طموحاته وهذا التصور يُعد أحد أسباب وجود الثقافة الاستهلاكية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

ولقد انتشرت العقلية الاستهلاكية لدى أفراد المجتمعات الإسلامية المعاصرة نتيجة حالة الترف التي يعيشها بعضهم، أو نتيجة التقنية غير الملائمة، التي شجعت في الإنسان الميل للراحة والدعة والاستسلام للحياة المرفهة الناعمة، والتي وفّرت لأفراد المجتمع وسائل الرفاعية والنعيم وأنواع الطيبات والملذات وأصناف السلع الاستهلاكية.

إن أكثر ما يشغل العقلية الاستهلاكية هو توفير الاحتياجات المادية، واقتناء كل ما يستجد عرضه في الأسواق وعلى صفحات الإعلانات والجرائد اليومية. كما أنها لا تكثرث باتلاف أو رمي الزائد عن حاجتها. إن ركيزة الانحدار عن الأمم والحضارات هو طغيان المادة وديمومة القيم المادية وتركز عقلية الاستهلاكية السلبية في كيانها.

وتبرز فوضى الاستهلاك بوضوح، حينما تبدأ الزوجة بعرض نفقتها، لتكون نفقات من السلع والمواد الغذائية التي تبتلع فعليًا الدخل الشهري حتى آخر قرش فيه.

وتنتقل عدوى التبذير إلى الأطفال فينمو معهم انعدام الحس بقيمة الأشياء، فلا يحافظون بالتالي على ألعابهم أو كتبهم أو دفاترهم.

وفي ظل ذلك، لا يعود التبذير مسألة فردية، بل مظهرًا اجتماعيًا، ولا يعود قضية وقتية حالية، بل مسألة تمتد إلى المستقبل، ولا يعود التبذير والإسراف والترف أمورًا تقتصر على الأسرة فقط، بل تصل إلى مستوى الوطن.

ومن الحلول والمعالجات المقدمة لظاهرة الاستهلاك الترفي ما يلي:

(١) التخلص من القيم الاستهلاكية السيئة حتى لا يتسبب الاستهلاك الترفي في وجود الفقر وسط الرخاء، إذ باستمراره قد تضيع موارد الأسرة ويُفقد معها التوازن النفسي والاجتماعي.

(٢) تقدير الكميات المطلوبة والجودة والنوعية والفترة الزمنية لاستهلاك السلعة.

(٣) كبح الانفعال العاطفي المتعلق بالكميات المطلوبة لشرائها واستهلاكها.

(٤) تشجيع الأفراد على الإدخار وتيسير قنوات فعالة لاستثمار مدخراتهم.

(٥) مراقبة الاستهلاك بصفة مستمرة والتحكم فيه عن طريق السياسات المالية والاقتصادية والنوعية المستمرة على مستوى الفرد واحاطته دائمًا بخطورة حالة الاستهلاك.

(٦) تنمية الوعي الاستهلاكي لدى أفراد المجتمع.

إن من الملاحظ اليوم تحوّل العالم الإسلامي إلى مجتمع استهلاكي تسوده تطلعات عارمة للشراء السريع، وإن كان عند سكان الدول ذات الفوائض ما

يشبع تطلعاتهم للرخاء والرفاهية، فإن السكان في معظم المجتمعات الفقيرة يشعرون بالإحباط، خاصة بعد أن تباطأت سرعة نمو الدخل في بلادهم.

إن الاعتدال هو جوهر الإسلام في كل الأنشطة البشرية، فالإسلام ينهى عن التقتير كما ينهى عن الإسراف، وعن الاستهلاك حباً في الظهور. ولذا وضع الإسلام قيوداً نوعية وكمية على الاستهلاك.

إن على المسلمين أن يحجموا عن أي نمط سلوكي يدمر هذه القيم. فأَي نفقة بنية التباهي أو إظهار الأبهة أو الخيلاء، لابد وأن يكون من شأنها توسيع الهوة الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء. ولقد حث الرسول الكريم- صلى الله عليه وسلم -المسلمين على أن يحيوا حياة بعيدة عن الكبر والخيلاء.

كما أن الإسلام يتطلب اعطاء الاستهلاك جدوى وجودة أعظم. كما يأمر بتجنب أسلوب الحياة القائم على الخداع، لاشباع الميل الشديد إلى تقليد الآخرين.

إن نمط الانفاق السليم والمتفق مع الآداب الإسلامية هو ذلك الذي يحكي البساطة والتواضع، والاستفادة من الدخل والموارد في الأخذ بأسباب الراحة وتحقيق الحياة الكريمة.

العهد بين التدبير والتبذير

نحن الآن على أبواب عيد كريم، فغداً يفرح الملايين من شتى أنحاء العالم الإسلامي بعيد الفطر ويتزاور الأهل والأصدقاء ويلبس الناس الجديد والجميل من الثياب والحلي.

إن مغزى العيد نفسياً واجتماعياً واقتصادياً كبير وعظيم، بما يضيفه على القلوب من أنس وعلى النفوس من بهجة وعلى الأجسام من راحة.

ففي العيد تتقارب القلوب على الود، وتجتمع على الألفة، وفي العيد يتناسى ذوو النفوس الطيبة أضغانهم فيجتمعون بعد افتراق ويتصافون بعد كدر، وفي ذلك كله تجديد للصلة الاجتماعية بين الناس.

وفي العيد تذكير المجتمع بحق الضعفاء والعاجزين بحيث تشمل فرحة العيد كل بيت وتعم النعمة كل أسرة من خلال صدقة الفطر والهدايا.

يقول مصطفى السباعي - رحمه الله -:

من أراد معرفة أخلاق أمة فليراقبها في أعيادها إذ تنطلق فيها السجايا على فطرتها وتبرز العواطف والميول والعادات على حقيقتها.

ولاشك أن في أعيادنا بحمد الله تتسم بعض مظاهر التعاون الاجتماعي من صدقات ومبرات للبيوت الفقيرة والعائلات البائسة.

بيد أن ذلك إلى حد ما قليل بالنسبة لما ينبغي أن تكون عليه أعيادنا، بالنسبة لمظاهر الترف والانفاق الذي ننفقه على ملذاتنا وفي أسفارنا وولائمنا. فنحن نكتفي بالعطاء القليل مع استطاعتنا أن نبذل الكثير.

ينبغي أن تحقق أعيادنا الأهداف والغايات المشروعة لنحقق مبدأ الأمة الخيرة، فلا نسرف في لهونا وفرحنا، ونشعر بإخواننا المحتاجين والفقراء، ونواسي المنكوبين ونقتصد في ضحكنا ولعبنا ونتذكر إخواننا ومآسيهم.

العيد لمن؟!!

ليس العيد لمن تمتع بالشهوات وأكل ما لذ وطاب ولبس فاخر الثياب وعن جاره المحتاج تعامى وعن الواجبات غاب.

وليس العيد لمن عقى والديه فحرم الرضا، ونال الغضب ووقع في العقوق.

وليس العيد لمن يحسد الناس على ما آتاهم الله عزوجل من فضله.

كيف يسعد بالعيد من تجمل بالثوب الجديد الأبيض وقلبه على أخيه المسلم قاتم أسود.

كيف يهنأ بالعيد من استقام في رمضان وصلى وصام، وذكر الله تعالى وبعد رمضان عدل عن الطريق الأقوم.

كيف يفرح بالعيد من أضاع أمواله في الملاهي والمناهي مسرفاً مبذراً مانعاً حق الفقراء والمساكين.

حكمة العيد:

في هذا اليوم (يوم العيد) ينبغي أن ينسلخ كل إنسان عن كبريائه وتفخاره وتباهيه بحيث لا يفكر بأنه أعلى أو أثرى أو أغنى أو أفضل من الآخرين، وبحيث لا يتخيل الغني مهما كثر ماله أنه أفضل من الفقير.

يقول رسول الهدى عليه السلام: ((إذا كان يوم عيد الفكر وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا: اغدوا معشر المسلمين إلى ربِّ كريم يمنّ بالخير ثم يثيب

عليه الجزيل، لقد أمرتم بقيام الليل فقمتم، وأمرتم بصيام النهار فصمتتم وأطعتم ربكم، فاقبضوا جوائزكم. فإذا صلّوا نادى منادٍ ألا إن ربكم غفر لكم، فارجعوا راشدين إلى رحالكم، فهو يوم الجائزة..)) رواه الطبراني.

إنّ العيد لمنّ خاف يوم الوعيد واتقى مظالم العبيد بعيداً عن الغش والكذب والاحتيال والاسراف والتبذير.

لذا قيل: إنما العيد لمنّ فاز بالقبول وحسن الختام.

هل العيد مناسبة للتبذير أم فرصة للتبذير!؟

إخواني: إن الإقبال الشديد على الطعام والشراب واللباس والحلوى والزينة والولائم والمناسبات الباذخة فيه مفسد دينية ودينيوية فهو يفسد الجسم بالأسقام ويتلف المال ويورث الإنسان الهمّ بالليل والمذلة بالنهار.

فما أكثر الأحداث المؤلمة والمظاهر المحزنة التي تنزل بالناس في أيام الأعياد نتيجة التسابق إلى الإسراف بأشكاله المختلفة وصوره المتنوعة.

ونسي الناس أو تناسوا أن لهم إخواناً في ديار نانية ومناطق بعيدة، بله من يسكن بجوارهم يعانون من شظف العيش وقلة ذات اليد والمجاعة والفقر والعوز، هؤلاء هم في أشد الحاجة إلى يد حنونة تساعدهم وتمسح دمعهم وتفرح قلوبهم وتبهج أنفسهم.

ومن ثم، ينبغي أن نكفّ أيدينا عن التبذير المبالغ فيه في أيام الأعياد، وليكن العيد فرصة للتبذير الرشيد وكذا فرصة للمواساة والتكافل.

مآسي العيد:

كم من أموال تُصرف في هذه الأيام على الملاهي والمناهي والملاعب والملابس والحلوى والمناسبات.

وكم يتعدى المسلمون في هذه الأيام حدود الأدب بأفعال غير رشيدة وتصرفات غير سديدة.

أين مَنْ كان لا يفرح بعيد ولا بغيره، إلا بما قدّمه من عمل صالح وفعل خير.

حكى أن عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - رأى ولدًا له يوم عيد وعليه قميص ممزق، فبكى - رحمه الله - فقال له ابنه ما يبكيك يا والدي؟ قال عمر - رحمه الله -: أخشى يا بني أن ينكسر قلبك في يوم العيد إذا رآك الصبيان بهذا القميص. فقال: يا أمير المؤمنين: إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضا، أو عَقَّ أمه وأباه. وإني لأرجو أن يكون الله راضيًا عني برضاك. فبكى عمر، وضمه إليه وقبله ودعا له، فكان أزهّد الناس بعده.

ختامًا أقول: لاشك في أننا نستعد للعيد آباء كنا أو أمهات، أزواجًا أو زوجات، شبانًا أو شبابات، ولا شك في أننا نهى كل ما يستلزمه العيد من لباس وأكل ولهو ولعب وسفر.

فانضف إلى ذلك كله استعدادًا آخر أكرم عند الله تعالى هو استعداد ليوم الرحيل.

فنفثش عن جيراننا وحوائجهم، ونفرج كُرب إخواننا البؤساء المعدمين المشردين، ونعين الملهوف المحتاج، وندخل السرور على كل قلب.

ليكن عيدنا أقرب إلى حُسن التدبير منه إلى قبيح التبذير.

وقد آن أوان ذلك.

عيد رمضان

فطر الإنسان على حب الأفرح والأعياد، إذ تتزين النفوس وتلبس الدنيا أبهى حللها ويتواصل الناس ويتبادلون التهاني والزيارات التي تدعم أواصر المحبة والإخاء والتراحم.

وللأعياد في الإسلام معنى خاص ومفاهيم سامية يقول د. عبدالفتاح سلامة: يتفرد العيد في الإسلام بما يضفي عليه سمات العلو، والشرف، لأنه من أجل فكرة خالدة ماجدة ولتحقيق هدف نبيل.

فالأعياد في شريعة الإسلام الغراء ليست فصلية أو كونية أو وطنية أو شخصية. فهي تدور مع السنة القمرية حيث تدور وتأتي في كافة الفصول.

لما هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة وجد الناس يلعبون ويمرحون في يومين، ورثوا عن آبائهم وأجدادهم اتخاذهما عيدين، فقال لهم: ((قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما يوم الفطر ويوم الأضحى)).

ومن أهم المعاني التي بُني عليها الاحتفال بالأعياد في الإسلام: بدء العيد بذكر الله وبالتهليل والتكبير والاجتماعي في صلاة العيد والاستماع إلى خطبة العيد.

كان بعض السلف الصالح يظهر عليه الحزن يوم العيد وكان إذا قيل له: إنه يوم فرح وسرور. يقول: صدقتم ولكني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملاً وهو الصوم ولا أدري مني أيقبله أم لا؟!.

ورأى أحدهم قوماً يضحكون يوم عيد الفطر، ويلعبون فقال: إن كان هؤلاء تُقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الشاكرين وإن لم يُتقبل منهم فما هذا فعل الخائفين.

قال أبو بكر المروري: دخلت على أبي بكر بن مسلم - رحمه الله - يوم عيد، فوجدت عليه قميصاً مرقعاً وقدامه قليل خروب يقرضه، فقلت له: يا أبا بكر

يوم عيد الفطر تأكل الخروب؟ فقال لي: لا تنظر إلى ما آكله الآن ولكن انظر إن
سألني: من أين لك؟ أي شيء أقول!!.

ولذا، قال سلفنا الصالح إن من الآداب الشرعية للعيد: إظهار التكبير، وإخراج
صدقة الفطر قبل صلاة العيد والأكل قبل الخروج إلى الصلاة في عيد الفطر
والإغتسال قبل الغدو إلى المسجد والتجمل في هذا اليوم والمشى من طريق
والعودة من طريق آخر وإظهار السرور في هذا العيد بما لا يتنافى مع
المشروع، والتهاني تكون وفق الهدى النبوي.

يقول أحد الشعراء في العيد:

يُسْرُ بِالْعِيدِ أَقْوَامٌ لَهُمْ سَعَةٌ = مِنْ الثَّرَاءِ وَأَمَّا الْمُقْتَرُونَ فَلَا

وقال آخر:

نُسْرَ بِالْعِيدِ يَا وَيْحَنَا = وَكُلُّ عِيدٍ قَدْ تَوَلَّى بَعَامَ

وقال الوأواء الدمشقي:

مَنْ سَرَّهُ الْعِيدُ فَلَا سَرَّنِي = بَلْ زَادَ فِي شَوْقِي وَأَحْزَانِي

لأنه ذكّرني بما مضى = مِنْ عَهْدِ أَحِبَابِي وَإِخْوَانِي

قال محمد بن أبي الفرج: احتجت في شهر رمضان إلى جارية تصنع لنا الطعام
وتعد لنا ما نحن في حاجة إليه فوجدت في السوق إحدى الجوارى يُنادى
عليها بثمن يسير، وهي مصفرة اللون، نحيفة الجسم، يابسة الجلد فاشتريتها
رحمة لها ورأفة بها وأتيت بها إلى المنزل فقلت لها: خذي أوعية وامض معي
إلى السوق لنشتري حوائج رمضان. فقالت: يا سيدي، أنا كنت عند قوم كل
زمانهم رمضان. فعلمت أنها من الصالحات العابدات وكانت تقوم الليل كله في
رمضان، فلما كانت آخر ليلة من شهر رمضان، قلت لها: امض بنا إلى السوق
لنشتري حوائج العيد. فقالت: يا مولاي، أي حوائج تريد؟ حوائج العوام أو
حوائج الخواص. فقلت لها: صف لي حوائج العوام، وحوائج الخواص.

فقلت: يا سيدي حوائج العوام طعام المعهود في العيد وحوائج الخواص الاعتزال عن الخلق والتفريد والتفرغ للخدمة والتجريد، والتقرب بالطاعات للملك المجيد والتزام ذل العبيد. فقلت لها إنما أريد حوائج الطعام فقلت: أي طعام تعني؟ طعام الأجساد أم طعام القلوب؟ فقلت لها صفيهما لي.

فقلت: أما طعام الأجساد فهو القوت المعتاد، وأما طعام القلوب فترك الذنوب وإصلاح العيوب والتمتع بمشاهدة آثار المحبوب والرضا بحصول المقصود والمطلوب وحوائجه الخشوع والتقوى وترك الكبر، والدعوة والرجوع إلى المولى والتوكل عليه في السر والنجوى.

دخل أشجع السلمي على الخليفة هارون الرشيد في عيد الفطر، فأنشد قائلاً:

استقبل العيد بعُمرٍ جديدٍ = مدّت لك الأيام حبلاً الخلود

تمضي لك الأيام ذا غبطةٍ = إذا أتى عيدٌ طوى عُمرَ عيد

وعن العيد قال علي الجارم:

تبَلَّجَ بالبُشرى ولاحت مواكبُه = ورقّت بأنفاس النسيم سبائبُه

أطلّ صباح العيد جذلانٌ ضاحكًا = يُمازحُ وسنانَ الرّحى ويلاعِبُه

وكيفَ ينامُ الليلُ في صحوةِ المنى = وقد سهرتْ شوقًا إليها كواكبُه

دخل رجل على أمير المؤمنين عليّ - كرم الله وجهه - يوم عيد فوجده يتناول خبزًا خشنًا. فقال: يا أمير المؤمنين، يوم عيد وخبز خشن، فقال عليّ: اليوم عيد مَنْ قُبِلَ بالأمس صيامه وقيامه، عيد مَنْ عُفِرَ ذنبه وشكر سعيه وقُبِلَ عمله، اليوم لنا عيد، وغدًا لنا عيد، وكل يوم لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد!!.

كتبوا عن رمضان

رمضان .. أحمد حسن الزيات

نعم رمضان! ولا بد من رمضان بعد أحد عشر شهراً قضاه المرء في جهاد العيش، مستكلب النفس، مستأسد الهوى، متمر الشهوة، ليوقظ رواقد الخير في قلبه، ويرهف أحاسيس البر في شعوره، ويرجع روحه إلى منبعها الأزلي الأقدس فتبراً من أوزار الحياة، وتطهر من أضرار المادة، وتتزود من قوى الجمال والحق ما يمسكها العام كله على فتنة الدنيا ومحنة الناس .

فرمضان رياضة للنفس بالتجرد، وثقافة للروح بالتأمل، وتوثيق لما وهى بين القلب والدين، وتقريب لما بعد بين الرأفة والمسكين، وتأليف لما نفر من الشمل الجميع، وتنديئة لما يبس من الرحم القريبة، ونفحة من نفحات السماء تفعم دنيا المسلمين بعبير الخلد وأنفاس الملائكة !

ورمضان كله عيد وطني شامل، تفيض بالسرور أنهاره، وتغرق في النور لياليه، وتفتّر بالأنس مجالسه. فالرجال يحيون أماسيه في محافل القرآن أو منازل اللهو النزيهة، والنساء يوزعن الوداد والأنس على الأبهاء الكثيرة، والأطفال الهازجون يزينون الطرقات بفوانيسهم الملونة الصغيرة، والبيوت الباقية على العهد تتقرب إلى الله بالذكر والصدقات، والمساجد المقفرة طول العام تعج بالوعظ والصلوات، والمآذن الحالية بالمصابيح، الشادية بالتسابيح، ترسل في أعماق الأبد نور الله وكلمته !

وكل شيء في رمضان جذلان مغتبط، ما عدا الرومي في الحان، والشيطان في كل مكان !

ورمضان مظهر قومي رائع، يعيد إلى القاهرة عز القرون المواضي، فيصبغ لونها الاوربي الحائل بصبغة الشرق الجميلة، ويرفع صوتها الخافت بشعائر الصوم الجليلة، ويبرز شخصيتها الضائعة في زحمة الاجانب بالمظاهر

الرسمية للحكومة، والتقاليد العرفية للشعب. وما أروع القاهرة في سكتتها
عند الإفطار، وجلبتها عند السحور، وهزتها ساعة انطلاق المدفع !

ورمضان بعد ذلك كله رباط اجتماعي وثيق، يؤكد أسباب المودة بين أعضاء
الأسرة بالتواصل والتعاطف، وبين أفراد الأمة بالتزاور والتآلف، وبين أهل
الملة بذلك الشعور السامي الذي يغمرهم في جميع بقاع الأرض بأنهم يسيرون
إلى غاية الوجود قافلة واحدة، ممتزجة الروح، متحدة العقيدة، متفقة الفكرة،
متشابهة النظام، متماثلة المعيشة .

ولكن رمضاننا الأول وأسفاه لم يخفَّ على طبع المدينة الحديثة! فرمته بقله
الإنتاج وكثرة الإهلاك وشل الحركة وقتل الصحة، ونفته إلى إحياء العمال
وقرى الفلاحين، واتخذت لنفسها من بقاياها رمضان آخر رقيق الدين، خفيف
الظل، باريسى الشمانل، يبيح النظرة المريبة والكلمة العارية والأكلة الدسمة
والسيجار الغليظ، ولا يسألهم من ظرفه إلا إن جعلوا العشاء عند الغروب
وبعد طلقة المدفع! وإذا كان في بيوت المحافظين قارئ يقرأ القرآن، وذاكر
يذكر الله، فليكن في بيوت المتجددين (راديو) يرجع أصوات الغناء، وحاك يردد
أهازيج الرقص !

وهكذا تجدُّ الليالي ونحن نلعب! كأنما كتب علينا أن نأخذ الحياة من جانبها
الفضولي العابث فتتأثر بها ولا نؤثر فيها، وكأنما همنا ان نعيش صعاليك على
تقاليد الامم دون أن تميزنا خصيصة من قومية، ولا شعيرة من عقيدة! وكأنما
الشعائر التلمودية القاسية عاقت اليهود عن المغامرة والنبوغ والتقدم !

أما رمضان القرية فلا يزال يحل من أهلها محل النور من العين والمهجة من
القلب! تجسمت في خواطرهم صورته حتى جعلوه رجلاً له حياته وعمره
وأجله . يذكرونه على شهرين من مقدمه. فيحسبون حساباه! ويهيئون
أسبابه، حتى إذا دب إليهم من غيوب الآباد دبب الهرم سلسلت الشياطين،
وأرسلت الأملاك. وهبطت الأرواح، ودرت أخلاف الخير، واغدودقت أصول
النعم! هنالك يملك القرية شعور تقي هادئ خاشع، فلا تعود تسمع لغواً في
حديث، ولا عنفاً في جدل، ولا بغياً في خصومة! فإذا أذهل أحدهم الغضب فرجع

صوته ندم عجلان واستغفر ثم قال: اللهم إني صائم! ذلك لأن رمضان يُرجع الفلاح نقياً كقطرة المُن، طاهراً كقطرة الوليد، فلا يقتل ولا يسرق ولا يشهد الزور ولا يقول الهُجر ولا يأتي المنكر. وما أجمل أن ترى فاتك الأمس ناسك اليوم! يمشي من البيت إلى المسجد في ثوبه النظيف ونيد الخطو، غُضيض الطرف، ولا تترك المسبحة يده، ولا يفتر عن التسبيح لسانه، فإذا قابل القروية الجميلة وعلى رأسها الجرة، اتحد جمالها في نظره، بجمال الخير في نفسه، فأمن في التسبيح واستغرق في الله، لأن إبليس في رمضان سجين، وباب الغواية مغلق!

يقضون صدر النهار في تصريف أمور العيش، ثم يجلسون على المصاطب في أشعة الأصيل الفاترة يستمعون القصص أو الوعظ. حتى إذا تضيّفت الشمس جلسوا في الطريق أمام بيوتهم فمدوا الموائد على الأرض، ودعوا إليها عابري السبيل وطالبي الصدقة، ثم لا يلبث الأضواء المحض أن يجعل الموائد المتعددة مائدة واحدة، يصيب منها من يشاء ما يشاء!

أما ليلهم فاستماع للقرآن، واستقبال للإخوان، ومسامرة مشتركة ساذجة تجمع أفنانا شتى من شهى الحديث، وكلما انقضى نهار من رمضان تَغَضَّن سرار من وجوه القوم، حتى إذا لم يبق إلا الأربعة الأخيرة تمثلوه محتضراً يكابد غصص الموت، فندبوه في البيوت والمساجد، ورثوه على السطوح والمآذن، ويكوه يوم (الجمعة اليتيمة) أحرَّ بكاء.

فإذا كان المغرب الأخير ولم يبق من رمضان إلا بقية روح، خامرهم الخوف من انطلاق الشياطين السجينة، فجلس الصبيان على أبواب الغرف يكررون البسمة ويضربون حديداً بحديد، ليحفظوا البيت من دخول شيطان مريد!

ذلك رمضان كما تدركه الفطر السليمة والقلوب المؤمنة، وهو وحده الباقي لفلاحنا من غفلات العيش ولحظات السعادة! ولكن وا أسفاه! لقد أفسدت الأزمنة رمضان القرية، كما أفسدت المدنية رمضان المدينة!

العيد .. أحمد حسن الزيات

في ذات مساء اشتد فيه الصراع بين بواكر الربيع وأواخر الشتاء، ارتفع من بين ضجيج القاهرة ولغط النهار الراحل، طلقات ضعيفة من مدفع عتيق. . وتألفت في شرفات المآذن الشم مصابيح الكهرباء بغتة. . فعلم الناس بمقتضى التقاليد أن غداً يوم العيد!..

راح قوم يقضون ليلهم بين وحشة القبور ورهبة الموت، في غير إدكار ولا اعتبار ولا خشية! وبات آخرون يتعهدون كباش الأضاحي بالعلف، ويشحذون لصباحها المدى والسواطير!..

وأصبحت القاهرة دامية البيوت، حامية المطابخ، شديدة الجلبة: وبيوت الله التي نزل فيها العيد من السماء، تنتظر المؤمنين للصلاة والدعاء، فلم يغشها إلا فئات من العمال والبوابين والخدم!.

أما السراة والأوساط، فقد خرجوا من هندام الأمس، واهتمام اليوم، يستقبلون العيد في القهوات والحانات، بين لعبة النرد الصاخبة، وأحاديث الدواوين المعادة! فإذا تلاقى في الطريق صديقان، أو تراعى في القهوة قريبان، تبادلوا في فتور تحية العيد، ثم مضى كل منهما لشأنه!!

ذلك هو العيد أو ما يقاربه في مصر وفي سائر البلاد العربية! فلولا مرح طافر يقوم بالأطفال في هذا اليوم لعطلة المدارس، وجدة الملابس، وسحر النقود، وفتنة اللعب لمرَّ كسائر الأيام حائل اللون تافه الطعم بادي الكآبة!

فليت شعري ماذا حاق بنا من الأحداث والغير حتى غاضت ينابيع المسرة في القلوب، وماتت أحاسيس البهجة في النفوس، وتحللت أواصر المودة بين الناس، وآل أمر العيدين (وهما كل ما بقى في أيدينا من مظاهر الوحدة الدينية والعزة القومية) إلى هذه الصورة الطامسة والحال البانسة؟!!

لا نستطيع أن نتهم حسرة الحزن على الماضي، وذلة الضعف في الحاضر، فإن أعياد اليهود وإن فقدت بذلك مظهرها الاجتماعي، لم تفقد روعة الدين في الكنيس، ومتعة الأُنس في البيت، وجمال الذكرى في خاطر .

وأعياد إخواننا في الوطن والجنس والمجد والأسى من نصارى الشرق لا ينقصها الرواء والإخاء واللذة كذلك لا نستطيع أن نتهم المادية والمدنية، فانهما (وإن جنّتا على بعض الأخلاق الكريمة كالإخاء والإخلاص والمروءة والرحمة) لم تجنبا على نزعات السرور في النفوس، ولم تقضيا على غرائز اللهو في الطباع، بل ازداد الناس بهما في ذلك شراهة وحدّة .

والأعياد الأجنبية التي تشهدها مصر في ذكرى الميلاد ورأس السنة غاية في نعيم الروح والجسم، وآية في سلامة الذوق والطبع، وفرصة ترى فيها القاهرة (وهي متفرجة) كيف تفيض الكنائس بالجلال، وتزخر الفنادق بالجمال، وتشرق المنازل بالأنس، وتمسي الشوارع وبيوت التجارة ودور اللهو مسرحاً للحسن، ومعرضاً للفن، ومهبطاً للسرور، وتصبح أعياد القلة القليلة مظهراً للفرح العام، ومصدراً للابتهاج المشترك !

وهي من وراء ذلك كله من أقوى العوامل في توثيق العلاقة بين الله والإنسان بالصدقات، وبين الأصدقاء والأقارب بالهدايا، وبين الكبار والصغار باللعب، وبين الإنسان والإنسان بالمودّة .

إن ما هي الأسباب الصحيحة التي مسخت حياتنا هذا المسخ، وشوهت أعيادنا هذا التشويه، فجعلت المظاهر فيها خروفاً يذبح ولا يضحي، ومدافع تساعد المآذن ولا تجاب، وأياما كنفاهة المريض كل ما فيها همود ونوم وأكل؟؟

الحق أن لذلك أسباباً مختلفة، ولكنها عند الروية والتأمل ترجع إلى سبب رئيسي واحد: هو غيبة المرأة عن المجتمع الإسلامي. . . ذلك السبب هو علة ما نكابه من جفاء في الطبع، وجفاف في العيش، وجهومة في البيت، وسامة في العمل، وفوضى في الاجتماع .

كرهنا الدور لاحتجاب المرأة، وهجرنا الأندية لغياب المرأة، وسئنا الملاهي
لبعد المرأة، وأصبحنا كالسمك في الماء، أو الهباء في الهواء، نحيا حياة
الهيام والتشرد، فلا نطمئن إلى مجلس، ولا نستأنس لحديث !

فإذا لم تصبح المرأة في البهو عطر المجلس، وعلى الطعام زهر المائدة، وفي
النَّدي روح الحديث؛ وفي الحفل مجمع الأفئدة، فبهيات أن يكون لنا عيد
صحيح، ومجتمع مهذب، وحياة طيبة؛ وأسرة سعيدة !.

فلسفة الصوم .. مصطفى صادق الرافعي

لم أقرأ لأحد قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته؛ أما منفعته للجسم وأنه نوع من الطب له، وباب من السياسة في تدبيره، فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك؛ وكأن أيام هذا الشهر المبارك إن هي إلا ثلاثين حبة تؤخذ في كل سنة لتقوية المعدة وتصفية الدم وحيطة أنسجة الجسم؛ ولكننا الآن لسنا بصدد من هذا، وإنما نستوحي تلك الحقيقة الإسلامية الكبرى التي شرعت هذا الشرع لسياسة الحقائق الأرضية الصغيرة، عاملة على استمرار الفكرة الإنسانية فيها، كي لا تتبدل النفس على تغير الحوادث وتبدلها، ولكيلا تجهل الدنيا معاني الترقيع إذا أتت على هذه الدنيا معاني التمزيق .

من معجزات القرآن الكريم أنه يدخر في الألفاظ المعروفة في كل زمن حقائق غير معروفة لكل زمن، فيجليها لوقتها حين يضح الزمان العلمي في مآهته وحيروته، فيشغَبُ على التاريخ وأهله مستخفاً بالأديان، ويذهب يتتبع الحقائق ويستقصي في فنون المعرفة، ليستخلص من بين كفر وإيمان ديناً طبيعياً سائغاً، يتناول الحياة أول ما يتناول فيضبطها بأسرار العلم، ويوجهها بالعلم إلى غايته الصحيحة، ويضاعف قواها بأساليبه الطبيعية، ليحقق في إنسانية العالم هذه الشنيئة المجهولة التي تتوهمها المذاهب الاجتماعية، ولم يهتد إليها مذهب منها ولا قاربها؛ فما برحت سعادة الاجتماع كالتجربة العلمية بين أيدي علمائها لم يحققوها ولم ييأسوا منها، وبقيت تلك المذاهب كعقارب الساعة في دورتها، تبدأ من حيث تبدأ ثم لا تنتهي إلا إلى حيث تبدأ .

يضطرب الاشتراكيون في أوربا، وقد عجزوا عجز من يحاول تغيير الإنسان بزيادة ونقص في أعصابه؛ ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهب كتب ورسائل. ولو أنهم تدبروا حكمة الصوم في الإسلام، لرأوا هذا الشهر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة؛ فهذا الصوم فقرٌ إجباريٌّ تفرضه الشريعة على الناس فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم، سواء منهم من ملك المليون من الدنانير، ومن ملك القرش الواحد، ومن لم يملك شيئاً؛ كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبرياتهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها

الإسلام على كل مسلم؛ وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع .

فقرّ إجباريٍّ يراد به أشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة .

ولو حققت رأيت الناس لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم، ولا بأَسابهم، ولا بمراتبهم، ولا بما ملكوا؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة؛ فمن البطن نكبة الإنسانية، وهو العقل العملي على الأرض؛ وإذا اختلف البطن والدماع في ضرورة مد البطن مده من قُوَى الهضم فلم يُبق ولم يَدْر. ومن ههنا يتناوله الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب، ويجعل الناس فيه سواءً ليس بجميعهم إلا شعور واحد وحس واحد وطبيعة واحدة، ويحكم الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة، ويبالغ في إحكامه فيمسك حواشيه العصبية في الجسم كله يمنعها تغذيتها ولذتها حتى نفثة من دخينة. وبهذا يضع الإنسانية كلها في حالة نفسية واحدة تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوت الروح يعظم الرحمة ويدعو إليها، فيشبع فيها بهذا الجوع فكرة معينة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغني للفقير من طبيعته، واطمئنان الفقير إلى الغني بطبيعته؛ ومن هذين: (الاطمئنان والمساواة) يكون هدوء الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السلب والإيجاب في هذا الاجتماع الإنساني. وإذا أنت نزعت هذه الفكرة من الاشتراكية بقى هذا المذهب كلُّه عبثاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له .

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يبالغ أشد المبالغة، ويدقق كل التدقيق، في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها الطاقة. فهذه طريقة عملية

لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث، فهما طريقتان كما ترى: مبصرة وعمياء، وخاصةً وعامة، وعلى نظام وعلى فجأة ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، وحكم الوازع النفسي على المادة؛ فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول: (أعطني). ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبيته والاستجابة لمعانيه كما يواسي المبتلى من كل في مثل بلانه .

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة، ليحل في محله تاريخ النفس؟ وأنا مستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال الجسم للنفس؛ كأنه الشهر الصحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام وتغيير المعيشة، لأحداث الترميم العصبي في الجسم؛ ولعل ذلك أت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى يدخل في المحاق؛ إذ تفتح العروق وتربو في النصف الأول من الشهر كأنها في (مدّ) من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة، ثم يراجعها (الجزر) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءة وظلاماً. وإذا ثبت أن القمر أثراً في الأمراض العصبية، وفي مدّ الدم وجزره، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره .

وفي تَرَائي الهلال ووجوب الصوم لرؤيته معنى دقيق آخر، وهو - مع إثبات رؤية الهلال وإعلانها - إثبات الإرادة وإعلانها، كأنما انبعث أول الشعاع السماوي في التنبه الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والبر .

وهنا حكمة كبيرة من حَكَم الصوم، وهي عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي الذي يدرّب الصائم على أن يمتنع باختياره من شهواته ولذة حيوانيته. ويبقيه مصراً على الامتناع متهيئاً له بعزيمته، صابراً عليه بأخلاق الصبر، مزاولاً في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ

لا تتغير ولا تتحول، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة. وإدراك هذه القوة من الإرادة العملية منزلة اجتماعية سامية هي في الإنسانية فوق منزلة الذكاء والعلم؛ ففي هذين تعرض الفكرة مارةً مرورها، ولكنها في الإرادة تعرض لتستقر وتحقق. فانظر في أي قانون من القوانين، وفي أية أمة من الأمم، تجد ثلاثين يوماً من كل سنة قد فُرِضت فرضاً لتربية إدارة الشعب ومزاولته فكرة نفسية واحدة بخصائصها ومُلابساتها حتى تستقر وترسخ وتعود جزءاً من عمل الإنسان، لا خيالاً يمر برأسه مراراً؟

أليست هذه هي إتاحة الفرصة العملية التي جعلوها أساساً في تكوين الإرادة؟ وهل تبلغ الإرادة فيما تبلغ، أعلى من منزلتها حين تجعل شهوات المرء مذخنةً لفكره، منقادة للوازع النفسي فيه، مصرفة بالحس الديني المسيطر على النفس ومشاعرها؟

أما والله لو عم الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة، لتطهير العالم من رذائله وفساده، ومحق الأثرة والبخل فيه، وطرح المسألة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله، فيهبط كل رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكانها ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر، وليفهم في طبيعة جسمه - لا في الكتب - معاني الصبر والثبات والإرادة، وليبلغ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان؛ فيحقق بهذه وتلك معاني الإخاء والحرية والمساواة .

شهر هو أيام قلبية في الزمن، متى أشرفت على الدنيا قال الزمن لأهله: هذه أيام من أنفسكم لا من أيامي، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي) فيقبل العالم كله على حالة نفسية بالغة السمو يتعهد فيها النفس برياضتها على معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ويفهم الحياة على وجه آخر غير وجهها الكالح، ويراهما كأنما أجيعت من طعامها اليومي كما جاع هو، وكأنما أفرغت من خسانسها وشهواتها كما فرغ هو، وكأنما ألزمت معاني التقوى كما ألزمها هو. وما أجمل وأبدع أن تظهر الحياة في العالم كله - ولو يوماً واحداً - حاملة في يدها

السبحة. . ! فكيف بها على ذلك شهراً من كل سنة؟ أنها والله طريقة عملية لرسوخ فكرة الخير والحق في النفس؛ وتطهير الاجتماع من خسائس العقل المادي؛ ورد هذه الطبيعة الحيوانية المحكومة في ظاهرها بالقوانين، والمحررة من قوانين في باطنها - إلى قانون من باطنها نفسه يظهر مشاعرها، ويسمو بإحساسها، ويصرفها إلى معاني إنسانيتها، ويهذب من زيادتها، ويحذف كثيراً من

فضولها، حتى يرجع بها إلى نحو من براءة الطفولة، فيجعلها صافية مشرقة بما يجتذب إليها من معاني الخير والصفاء والإشراق. إذ كان من عمل الفكرة الثابتة في النفس أن تدعو إليها ما يلانمها ويتصل بطبيعتها من الفكر الأخرى. والنفس في هذا الشهر محتسبة في فكرة الخير وحدها، فهي تبني بنائها من ذلك ما استطاعت .

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصل نفساني كفصول الطبيعة في دورانها. وهو والله أشبه بفصل الشتاء في حلوله على الدنيا بالجو الذي من طبيعته السحب والغيث، ومن عمله إمداد الحياة بوسائل لها ما بعدها إلى آخر السنة، ومن رياضته أن يكسبها الصلابة والانكماش والخفة، ومن غايته إعداد الطبيعة للتفتح عن جمال باطنها في الربيع الذي يتلوه .

عجيب جداً أن هذا الشهر الذي يدخر فيه الجسم من قواه

المعنوية فيودعها مصرف روحانيته ليجد منها عند الشدائد مدد

الصبر والثبات والعزم والجلد والخشونة - عجيب جداً أن هذا

الشهر الاقتصادي هو من السنة كفائدة ٨ و ٣١ في المائة . . .

فكأنه يسجل في الأعصاب المؤمن حساب قوته وربحه، فله في

كل سنة زيادة ٨ و ٣١ من قوته المعنوية الروحانية .

وسحر العظام في هذه الدنيا إنما يكون في الأمة التي تعرف كيف تدخر هذه القوة وتوفرها لتستمد عند الحاجة، وذلك هو سر أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم وأعصابهم ما تجد الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد والأسلحة والذخيرة .

كل ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم فإنما استخرجته من هذه الآية الكريمة: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.) وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى (التقوى) أما أنا فأولتها من (الاتقاء) فبالصوم يتقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدته، وألا يعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة؛ ويتقي المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف. وبالصوم يتقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه، فإن ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خلفه هو الجيل الذي سيرث من هذا الطباع والأخلاق، فيعمل بنفسه في الحاضر، ويعمل بالحاضر في الآتي .

وكل ما شرحناه فهو اتقاء ضرر لجلب منفعة، واتقاء رذيلة لجلب فضيلة، وبهذا التأويل تتوجه الآية الكريمة جهةً فلسفية عالية لا يأتي البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجز ولا أكمل من لفظها؛ ويتوجه الصيام على أن شريعة اجتماعية إنسانية عامة، يتقي بها الاجتماع شرور نفسه، ولن يتهدب العالم إلا إذا كان له من القوانين النافذة هذا القانون العام الذي أسمه الصوم ومعناه (قانون البطن).

ألا ما أعظمك يا شهر رمضان! لو عرفك العالم حق معرفتك لسماك (مدرسة الثلاثين يوماً .)

قرآن الفجر .. مصطفى صادق الرافعي

كنت في العاشرة من سني وقد جمعت القرآن كله حفظاً وجودته بأحكام القراءة؛ ونحن يومئذ في مدينة (دمنهور) عاصمة البحيرة؛ وكان أبي رحمه الله كبير القضاة الشرعيين في هذا الإقليم. ومن عادته أنه كان يعتكف كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان؛ يدخل المسجد فلا يبرحه إلا ليلة عيد الفطر بعد انقضاء الصوم؛ فهناك يتأمل ويتعبد ويتصل بمعناه الحق، وينظر إلى الزائل بمعنى الخالد، ويطل على الدنيا إطلال الواقف على الأيام السائرة، ويغير الحياة في عمله وفكره، ويهجر تراب الأرض فلا يمشي عليه، وتراب المعاني الأرضية فلا يتعرض له، ويدخل في الزمن المتحرر من أكثر قيود النفس، ويستقر في المكان المملوء للجميع بفكرة واحدة لا تتغير؛ ثم لا يرى من الناس إلا هذا النوع المرطب الروح بالوضوء، المدعو إلى دخول المسجد بدعوة القوة السامية، المنحني في ركوعه ليخضع لغير المعاني الذليلة، الساجد بين يدي ربه ليدرك معنى الجلال الأعظم

وما هي حكمة هذه الأمكنة التي تقام لعبادة الله؟ إنها أمكنة قائمة في الحياة، تشعر القلب البشري في نزاع الدنيا أنه في إنسان لا في بهيمة ..

وذهبت ليلةً فبت عند أبي في المسجد؛ فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني للسحور، ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر وأقبل هو على قراءته. فلما كان السحر الأعلى هتف بالدعاء المأثور: اللهم لك الحمد! أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت بهاء السماوات والأرض؛ ولك الحمد، أنت زين السماوات والأرض. ولك الحمد، أنت قيام السماوات والأرض ومن فيهن ومن عليهن، أنت الحق ومنك الحق. إلى آخر الدعاء

وأقبل الناس ينتابون المسجد فأنحدرنا من تلك العلية التي يسمونها (الدكة) وجلسنا ننتظر الصلاة. وكانت المساجد في ذلك العهد تضاء بقناديل الزيت في كل قنديل ذبالة يرتعش النور فيها خافتاً ضئيلاً يبص بصيصاً كأنه بعض معاني الضوء لا الضوء نفسه. فكانت هذه القناديل والظلام يرتج حولها، تلوح كأنها شقوق مضيئة في الجو، فلا تكشف الليل ولكن تكشف أسرارها الجميلة، وتبدو

في الظلمة كأنها تفسير ضعيف لمعنى غامض يومئ إليه ولا يبينه، فما تشعر
النفس إلا إن العين تمتد في ضوئها من المنظور إلى غير المنظور كأنها سر
يشف عن سر

وكان لها منظر كمنظر النجوم يتم جمال الليل بإلقانه الشُّعَل في أطرافه العليا
والباس الظلام زينته النورانية؛ فكان الجالس في المسجد وقت السحر يشعر
بالحياة كأنها مخبوءة، ويحس في المكان بقايا أحلام، ويسري حوله ذلك
المجهول الذي سيخرج منه الغد. وفي هذا الظلام النوراني تنكشف له أعماقه
منسكباً فيها روح المسجد، فتعتربه حالة روحانية يستكين فيها للقدر هادئاً
وادعاً راجعاً إلى نفسه، مجتمعاً في حواسه، منفرداً بصفاته منعكساً عيه نور
قلبه؛ كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار، أو كأن تلك الظلمة قد
طمست فيه على أبواق الأرض .

ثم يشعر بالفجر في ذلك الغَبَش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعوراً
ندياً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنصَّرَ
من يُبْس، ويرق من غلظة. وكأنما جاءوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم
مبدوءاً بالرحمة مفتتحاً بالجمال؛ فإذا كان شاعر النفس التقى فيه النور
السماوي بالنور الإنساني فإذا هو يتلألأ في روحه تحت الفجر

لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد، والقناديل معلقة كالنجوم في
مناطقها من الفلك، وتلك السرج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب، والناس
جالسون، عليهم وقار أرواحهم، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه؛ وقد
استبهمت الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس،
فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ومعناه الذي هو ليس منه، فيخلق فيه
الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيل

لا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث في جو المسجد صوت غرد رخم، يشق
سُدْفَةَ الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي، وهو يرتل الآيات من آخر
سورة النحل :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ. وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ؛ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.) وكان هذا القارئ يملك صوته أتم ما يملك ذو الصوت المطرب، فكان يتصرف به أحلى مما يتصرف القمرى وهو ينوح في أنغامه، وبلغ في التطريب كل مبلغ يقدر عليه القادر، حتى لا تفسر اللذة الموسيقية بأبداع مما فسرها هذا الصوت؛ وما كان إلا كالبلبل هزته الطبيعة بأسلوبها في جمال القمر، فاهتز يجاوبها بأسلوبه في جمال التغريد

كان صوته على ترتيب عجيب في نعماته؛ يجمع بين قوة الرقة وبين رقة القوة، ويضطرب اضطراباً روحانياً كالحزن اعتراه الفرح على فجأة. يصيح الصيحة تترجح في الجو وفي النفس، وتتردد في المكان وفي القلب، ويتحول بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي، يلمس الروح فيرفض عليها مثل الندى، فإذا هي ترف رفيفاً، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطل

وسمعنا القرآن غصاً طرياً كأول ما نزل به الوحي، فكان هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم. وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه

واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه، وبدا الفجر كأنه واقف يستأذن الله إن يضيء من هذا النور.

وكنا نسمع قرآن الفجر وكأنما محيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة؛ وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية

أما الطفل الذي كان في يومئذ فكأنما دعا بكل ذلك ليحمل هذه الرسالة ويؤديها إلى الرجل الذي يجيء فيه من بعد. فأنا في كل حالة اخضع لهذا الصوت: ادع

إلى سبيل ربك؛ وأنا في كل ضائقة اخشع لهذا الصوت: واصبر وما صبرك إلا
بالله .

اجتلاء العيد .. مصطفى صادق الرافعي

جاء يومُ العيد؛ يومُ الخروج من الزمن إلى زمنٍ وحدَهُ لا يستمرُّ أكثر من يوم .

زمن قصيرٍ ظريفٍ ضاحك، تفرُّضُهُ الأديان على الناس، ليكون لهم بين الحين والحين يومٌ طبيعيٌّ في هذه الحياة التي انتقلت عن طبيعتها .

يومُ السلام، والبشر، والضحك، والوفاء، والإخاء، وقول الإنسان للإنسان:
وأنتم بخير .

يومُ الثياب الجديدة على الكل إشعاراً لهم بأن الوجه الإنسانيَّ جديدٌ في هذا اليوم .

يومُ الزينة التي لا يراد منها إلا إظهارُ أثرها على النفس ليكون الناس جميعاً في يوم حب .

يومُ العيد؛ يوم تقديم الحلوى إلى كل فم لتحلّو الكلمات فيه

يوم تعمُّ فيه الناسَ ألفاظُ الدعاء والتهنئة مرتفعةً بقوةِ إلهية فوق منازعات الحياة .

ذلك اليومُ الذي ينظر فيه الإنسانُ إلى نفسه نظرةً تلمحُ السعادة، وإلى أهله نظرةً تبصرُ الإعزاز، وإلى داره نظرةً تدركُ الجمال، وإلى الناس نظرةً ترى الصداقة .

ومن كل هذه النظرات تستوي له النظرة الجميلة إلى الحياة والعالم؛ فتبتهج نفسه بالعالم والحياة .

وما أسماها نظرة تكشف للإنسان أن الكلَّ جماله في الكل !

وخرجتُ اجتلي العيدَ في مظهره الحقيقي على هؤلاء الأطفال السعداء .

على هذه الوجوه النَّضرة التي كبرت فيها ابتسامات الرضاع فصارت ضحكات .

وهذه العيون الحاملة التي إذا بكت بكت بدموع لا ثقل لها؛ وهذه الأفواه الصغيرة التي تنطق بأصوات لا تزال فيها نبرات الحنان من تقليد لغة الأم؛ وهذه الأجسام الغضة القريبة العهد بالضمات واللثامات فلا يزال حولها جوُّ القلب .

على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياساً للزمن إلا بالسرور .

وكلُّ منهم ملكٌ في مملكة؛ وظرفهم هو أمرهم الملوكي .

هؤلاء المجتمعين في ثيابهم الجديدة المصبَّغة اجتماع قوس قزح في ألوانه . ثيابٌ عملت فيها المصانع والقلوب، فلا يتم جمالها إلا بأن يراها الأب والأمُّ على أطفالهما .

ثيابٌ جديدة يلبسونها فيكونون هم أنفسهم ثوباً جديداً على الدنيا .

هؤلاء السحرة الصغار الذين يخرجون لأنفسهم معنى الكنز الثمين من قرشين .

..

ويسحرون العيد فإذا هو يومٌ صغير مثلهم جاء يدعوهم إلى اللُّعب .

وينتبهون في هذا اليوم مع الفجر، فيبقى الفجرُ على قلوبهم إلى غروب الشمس .

ويُلْقُونَ أنفسهم على العالم المنظور فيبنون كلَّ شيء على أحد المعنيين الثابتين في نفس الطفل: الحبُّ الخالص، واللَّهُو الخالص .

ويبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة، فيكون هذا بعينه هو قربهم من حقيقتها السعيدة .

هؤلاء الأطفال الذين هم السهولة قبل أن تتعقد .

والذين يرون العالم في أول ما ينمو الخيال ويتجاوز ويمتد يفتشون الأقدار من
ظاهرها؛ ولا يَسْتَبْطِنون كيلا يتألموا بلا طائل .

ويأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها، ولا يأخذون من أنفسهم للأشياء
كيلا يوجدوا لها الهم .

قانعون، يكتفون بالثمرة؛ ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي تحملها .

ويعرفون كُنه الحقيقة، وهي أن العبرة بروح النعمة لا بمقدارها

فيجدون من الفرح في تغيير ثوب للجسم، أكثر مما يجده القائد الفاتح في
تغيير ثوب للمملكة .

هؤلاء الحكماء الذين يشبه كلٌّ منهم آدمَ أولَ مجينه إلى الدنيا .

حين لم تكن بين الأرض والسماء خليفةً ثالثة معقدة من صنع الإنسان
المتحضر .

حكمتهم العليا: أن الفكر السامي هو جعل السرور فكرا وإظهاره في العمل .

وشعورهم البديع: أن الجمال والحب ليسا في شيء إلا في تجميل النفس
وإظهارها عاشقة للفرح .

هؤلاء الفلاسفة الذين تقوم فلسفتهم على قاعدة عملية، وهي أن الأشياء
الكثيرة لا تكثر في النفس المطمئنة .

وبذلك تعيش النفس هادئةً مستريحةً كأن ليس في الدنيا إلا أشياءها الميسرة .

أما النفوس المضطربة بأطماعها وشهواتها فهي التي تبثلي بهموم الكثرة
الخيالية .

ومثلها في الهمّ مثلُ طفيليّ مغفّلٍ يحزن لأنه لا يأكل في بطنين .

وإذا لم تكثر الأشياء الكثيرة في النفس، كثرت السعادة ولو من قلة .

فالطفلُ يقلّب عينيه في نساءٍ كثيرات، ولكن أمّه هي أجملهن وإن كانت شو
هاء .

فأمه وحدها هي أمُّ قلبه، ثم لا معنى للكثرة في هذا القلب هذا هو السرُّ؛ خذوه
أيها الحكماء عن الطفل الصغير !

وتأملت الأطفال وأثر العيد على نفوسهم التي وسعت من البشاشة فوق ملئها .

فإذا لسانُ حالهم يقول للكبار: أيتها البهائم اخلعي أرسائك ولو يوماً

..

أيها الناسُ انطلقوا في الدنيا انطلقَ الأطفالُ يُوجدون حقيقتهم البرينة
الضاحكة .

لاكما تصنعون إذ تنطلقون انطلقَ الوحشُ يُوجد حقيقته المفترسة .

أحرارٌ حرية نشاط الكون ينبعث كالفوضى ولكن في أدقّ النواميس .

يثيرون السخط بالضجيج والحركة، فيكونون مع الناس على خلاف لأنهم على
وفاق مع الطبيعة .

وتحتدم بينهم المعارك ولكن لا تتحطم فيها إلا اللعب

أما الكبارُ فيصنعون المدفعَ الضخمَ من الحديد للجسم اللين من العظم .

أيتها البهائم اخلعي أرسائك ولو يوماً

لا يفرح أطفال الدار كفرحهم بطفل يُولد؛ فهم يستقبلونه كأنه محتاجٌ إلى
عقولهم الصغيرة .

ويفلؤهم الشعور بالفرح الحقيقى الكامن فى سر الخلق لقربهم من هذا السر .
وكذلك تحمل السنة ثم تلد للأطفال يوم العيد؛ فىستقبلونه كأنه محتاج إلى
لهوهم الطبعى .

ويفلؤهم الشعور بالفرح الحقيقى الكامن فى سر العالم، لقربهم من هذا السر .

فيا أسفًا علينا نحن الكبار! ما أبعدنا عن سر الخلق بأثام العمر !

وما أبعدنا عن سر العالم بهذه الشهوات الكافرة التى لا تؤمن إلا بالمادة !

يا أسفًا علينا نحن الكبار! ما أبعدنا عن حقيقة الفرح! تكاد آثامنا والله تجعل لنا
فى كل فرحة حجلة ...

أيتها الرياض المنورة بأزهارها !

أيتها الطيور المغردة بألحانها !

أيتها الأشجار المصفقة بأغصانها! أيتها النجوم المتلألئة بالنور الدائم !

أنتِ شتى؛ ولكنك جميعاً فى هؤلاء الأطفال يوم العيد !

